www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

يوسف زيدان

مجلة الابتسامة

أهل الحي

قصص قصيرات

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

دار الشروق

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر أكتوبر 2017 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

أهل الحي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أهل الحي

يوسف زيدان

الطبعة الأولى ٢٠١٧

تصنيف الكتاب: أدب / قصص

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ١٠٨٥٢ / ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3424-1

الغلاف: هاني صالح

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

يوسف زيدان

أهل الحي

دار الشروق

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

المحتويات

بطشُ البرطوشي ٧

صِنو أبيه ١٩

بيت العفريت ٢٨

زاوية الحلتيتي ٣٩

سكان السطوح ٥٢

يقين المساكين ٦١

خواطر غروبية ٧٣

خلود شيخ الحارة ٨٣

مينو بوز ٩٢

أشأمُ توأم ١٠١

سلاسةُ السلاسل ١١٤

التسليةُ بالتعزية ١٢٥

تمام التاسعة صباحًا ١٣٥

محفوظ حافظ ١٤٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

◊ بطشُ البرطوشي ◊

أهل المنطقة التي نسكنها مختلفون، كعادتهم، فيما يحدث مؤخرًا بالبيت الكبير الذي يتوسط الزقاق، وآراؤهم شتى متنافرة في رئيس اتحاد الملاك «مسكين البرطوشي» فالبعض منهم يراه نعمة من إنعامات السماء هبطت علينا، وعلى النقيض يراه بعضهم الآخر نقمة لحقت بسكان البيت وقد تمتد لاحقا إلى بقية البيوت. وكما هو معروف، فقد سُمي البيت الكبير بهذا الاسم بسبب اتساع مساحة أرضه، وكثرة الشقق في طوابقه التسعة، لاسيما الطوابق الخمسة العليا التي ارتفعت في غفلة مقصودة، بالمخالفة للقانون وبالرشوة.

بدأت الأحداث هادئةً، بعد الزلزال المريع الذي لم يعرف له مركز، مع أن القارات كلها شعرت به وارتعشت معه. فما كادت الزلزلةُ وتوابعها تنتهي، حتى شهدت الأسابيع التالية توافد عدة عائلات مشرَّدة أو شبه مشردة، لجأت للسكنى هنا بعد فقدانهم المأوى لأن بيوت الزقاق والحارتين صمدت ولم يسقط منها منزل واحد، مثلما حدث في أنحاءٍ عديدةٍ تهاوت البيوت فيها بعد ثوان من ابتداء الرجفة،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أو بعد خمود توابعها.. وقد تنازع أهلُ المنطقة كعادتهم في تفسير السبب، فقال فريقٌ إن بيوتنا مبنية بالأحجار الكبيرة على أسس متينة، تحت إشراف مهندسين كبار وضعوا لها التصميمات المناسبة. وقال فريقٌ آخر إن أقوال الفريق الآخر مجرد خرافات، وهي افتراءٌ على الحقيقة التي يعرفها أهل الإيمان القويم والنفوس المستقيمة، فقد صمدت البيوت استجابةً لدعاء الرجل المبارك صاحب الكرامات «زمار المحروسي» الذي فوجئ ليلتها بالزلزلة، فاندفع عاريًا فور وقوعها وخرج يجري من حمام بيته المستكين بآخر الحارة البحرية المتفرعة من زقاقنا، قاصدًا الميدان القريب، وهو يصيح صارخًا بكل ما في قلبه من قوة وتقوى: يا ستار، يا ستار، يا ستار.. ولما وصل إلى قلب الميدان متهدج الأنفاس، وسالمًا، سقط ميتا من فرحته بالنجاة ودُفن في المكان الذي أسلم فيه روحه إلى بارئها، رحمه الله، فلما لم يسقط أي منزل بالزقاق والحارتين حار الناس حينًا، ثم ثابوا وأنابوا وبنوا فوق قبر الشيخ القبة الكبيرة القائمة اليوم بوسط المقاهي التي بقلب الميدان.

انتشرت كرامته تلك، ولحقت بها كراماتٌ كثيرة ما كانت تخطر لأحدٍ على بال، واليوم تأتي إلى «مقامه» الزائراتُ من أنحاء البلاد لاغتراف البركة وفكِّ الأعمال السحرية وعمل الطِّلسمات للتعجيل بزواج الآنسات المائلات بطبعهن إلى التماس الأنس، وتتمسَّح بقُضبان المقام الآملاتُ في الاستلقاء المسمى دخول الدنيا. أما الرجال الفُرَّاغ والرُّقعاء من الشباب، فيرتادون المقاهي المحيطة بالمقام الطاهر لإبهاج مهجتهم بمفاتن الزائرات الآتيات للهمس

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بالأمنيات وهن متبتلات، متعلقات بالقضبان النحاسية المحيطة بمدفن «المحروسي» صاحب المقام، رحمه الله.

وبصرف النظر عن هذه التفسيرات، فقد أدى صمود المنازل في وجه الزلزال إلى تأكيد ثقة الناس في رسوخ المباني، فقاموا بتعليتها بشكل عشوائي محموم اعتمادًا على متانة قواعدها أو ثقةً في بركة الشيخ زمّار المحروسي. وفي خلال أشهر معدودات تضاعف عدد سكان الزقاق والحارتين ثلاثة أضعاف، مع مجيء الجيران الجدد الذين كان من بينهم «مسكين البرطوشي» الذي استأجر شقة بالطابق الأخير، المخالف، في هذا المنزل المزدحم المسمى: «البيت الكبير».

* * *

كانت أحواله عند الابتداء هادئة، فلم يشعر معظم الجيران بالساكن الجديد «مسكين» لاسيما أنه كان ميالًا للتواري عن العيون، ونادرًا ما يخرج إلى شرفته العالية أو يجالس الناس في المقاهي. ويومًا من بعد يومٍ وعامًا تلو عام، عرفه الجيران لكنهم لم يعرفوا عنه الكثير، إذ كان يوجز في الإجابة كلما سأله الفضوليون ولا يصرّح إلا بالنزر اليسير، فإذا سألوه عن عمله قال: على باب الله. وعن معنى اسمه الغريب، قال: هو اسم جدي لأمي، وكان من الصالحين. وعن معنى لقبه العجيب، قال إن جده الخامس كان يجمع الأحذية القديمة ويشتري البراطيش، كي يفك جلودها المهترئة ويحزّ حوافها، ثم يبيعها قِطعًا صغارًا لمن يُصلحون

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الأحذية ويخصفون النعال. وتلك مهنة كانت قديمًا مهمة، لكنها اختفت بعد انقضاء زمن النعال الجميل.

وبعد سنوات من سُكناه هنا، تبدّلت أحوال «مسكين» وأفعاله وكان بعضها لافتًا للنظر فظهر، أو لعله تعمّد إظهارها كي يلفت الأنظار إليه، إذ أخذ يُكثر من غُدوه ورواحه في الزقاق ويجاذب الناس أطراف الحديث ابتداءً، ويرتدي ملابس مدينية مناسبة ليجلس على المقهى القريب، وأيام الجمعة يذهب للصلاة في جلباب أبيض وعلى رأسه قماشٌ شبه شفَّاف يسميه «الغُترة» فوقه عقال أسود أو أحمر، ويقول إنها سُنة الرسول. وكلما تشاحن اثنان أو اندلع العراك وسط جماعة، أسرع إليهم لتهدئة النفوس وفك الاشتباك. حتى لو كان الخلاف بين زوج من الجيران وزوجته، أو بين أخ وأخيه، وصار يردِّد دومًا عبارته المعتادة: كلنا أهل وأحباب.

وبعد فترةٍ صار يتردد عليه ثلاثةٌ من لاعبي كمال الأجسام الضخام، عابسو الوجوه. فكان الشبابُ الناشطون يسخرون منهم، ويقولون إن هؤلاء الثلاثة يمكن اتخاذهم دليلًا على صحة النظرية القائلة إن الإنسان أصله غوريلًا، تزاوجت في الأزمنة السحيقة مع الخرتيت وفرس النهر.. بدأ ظهورهم في الزقاق مع ابتداء العام المعروف الذي اندلعت مع مطلعه الأحداث ثم تلاحقت، وما كان أحد من الجيران يتخيل ما سوف تئول إليه. وقد اعتقد الجميعُ في البداية، أن هؤلاء الثلاثة مجرد ضيوف عابرين جاءوا لزيارة «مسكين» فلما تكررت زيارتهم، تفاوتت أصداؤها. الفتيات

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

اللواتي راهقن البلوغ صرن بسبب منفوخ عضلاتهم نهبًا للخيالات المبهمة ولأحلام المحرومات، والفتيان الذين لا يأكلون ما تطبخه الأمهات ويحبون «الدليفري» صاروا عند مرورهم يسخرون سرا منهم ويتهامسون باسمين، والمتزوجات من النساء اندهشن من منظر الأكتاف المقبَّبة ثم عبَّرن عن الحسرة بسبب سوء حظوظهن، أما الرجال العُزَّاب والمتزوجون فكان بعضهم يقول عند عبور الثلاثة من الزقاق: ويخلق ما لا تعلمون! وبعضهم الآخر كان يحملق ويحوقل ولا يقول أي شيء.

الجيران الفضوليون سألوا «مسكين» عن العمالقة الثلاثة، فقال إنهم من أقاربه. وسألوه عن سبب ترددهم عليه، فقال إنهم كانوا يسكنون بعيدًا والآن يسكنون بالقرب منه، ويصلون الرحم من بعد طول انقطاع. وسألوه عن عملهم، فقال عبارته المعتادة: على باب الله!

بعد فترةٍ ترددت في الزقاق أقاويلُ لا ضابط لها ولا دليل عليها، منها أن هؤلاء الثلاثة أشقاء أشقياءٌ كانوا مسجونين بسبب جرائمهم ثم أفرج عنهم مؤخرًا، وهم الآن تحت المراقبة. ومنها أنهم في الأصل أيتام ظلمتهم الحياة، حتى استوى عودهم فاعتادوا التردد على المكان المسمى على لسان الفقراء «نادي الحديد» وعلى لسان المتفرنجين: الجيم. وهم حاليًا يعملون عند انتصاف النهار بتجارة المخدرات والعقاقير النافخة للعضلات، وعند انتصاف الليل يحرسون أحد البارات المشهورة ويقمعون فورات السكارى.

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

في منتصف العام المعلوم صار «مسكين البرطوشي» يخرج يوميًّا من بيته ساعة العصر يحوطه الثلاثة الضخام كأنهم الحراس، فأوحى ذلك لبعض الجيران بقصة شيقة ملخصها أن «مسكين» مطلوب في ثأر، وقد استأجر هؤلاء لحمايته من المتربِّصين به. وزعم جيران آخرون أن العكس هو الصحيح، فهؤلاء الثلاثة مطلوبون للثأر في بلدة نائية بأقاصي الصعيد، وقد لجئوا إلى «مسكين» لتسهيل سفرهم إلى خارج البلاد، لأن لديه خبرة في هذا المجال وكان يمارس هذا النشاط لسنوات، ثم انقطع عنه بعد وقوع الزلزال وانهيار المبنى الذي كان يتخذه مقرًّا لشركته، التي كانت متخصصة في تلبية رغبات الطامعين في عقد عبودية مؤقتة.. لكن تلك جميعها حكايات لا تأكيد لها ولا اهتمام بإثباتها، لأن الحكي والتحاكي والحكايات هي الأهم في الزقاق.

وقد بدأ تصاعد الأحداث في منتصف الصيف الماضي، وقت الظهيرة، ساعة وقف «مسكين» أمام بوابة البيت الكبير يحوطه عماليقه الثلاثة، وصاح ليسمعه العابرون والساكنون: الوضع ده ما يصحش! فجاوبته من شرفتها المنخفضة الحاجة «محاسن» الساكنة بشقة بالطابق الأرضي للبيت الكبير، وجرى بينهما هذا الحوار:

ـ مالك يا سي «مسكين» زعلان ليه؟

ـ حالة العمارة بقت زفت، ولازم نتحرك..

ـ والله عندك حق يا خويا، ربنا يعدِّلها من عنده.

ـ ربنا قال: اسعَ يا عبد وانا اسعى معاك.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ يعني نعمل إيه؟

ـ نعمل اتحاد مُلاك يا ست محاسن، ويبقى له رئيس.

ـ بس يا سي «مسكين» العمارة كلها إيجار، وفيها شقق مفروشة كتير، وصاحبها الأساسي الله يرحمه.

ـ وماله، برضه لازم نختار رئيس اتحاد مُلاك علشان يراعي العمارة بدل البهدلة دي، المدخل زبالة ولمبات السلم محروقة، والمناور مليانة فران، ويمكن كمان فيها تعابين.

ـ خلاص يا سي «مسكين» إحنا اخترناك انت رئيس اتحاد، وأكيد الشباب قرايبك دول هيساعدوك.

ـ على خيرة الله.. والله المهمة صعبة يا ست «محاسن» إنما ربنا يقدرني.

أطلقت الحاجة «محاسن» زغرودةً رنانة، معلنةً للجميع عن ابتداء رئاسة «مسكين» للاتحاد، فردَّت عليها من زوايا الزقاق الزغاريدُ التي لم تعرف المزغرداتُ بها سبب الزغردة.. وفي المساء، سرى همسٌ بين شباب الدليفري، مفاده أن الحوار الذي جرى ظهرًا بين محاسن ومسكين، كان متفقًا عليه من قبل. لكن عقلاء الزقاق رفضوا هذا التفسير التآمري وقبلوا ولاية رئيس اتحاد الملاك، عسى الله يحدث من بعد ذلك أمرا لا يكون إمرًا. وتغاضوا عن أن البيت الكبير لا يسكنه إلا المستأجرون بالنظامين القديم والجديد، لم يعد له مالك معروف منذ سنين.

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بدأ عهد «مسكين» في اليوم التالي باحتفالٍ ذبح فيه خروفًا للفقراء ودعا السكان للتبرع بالمال لمساعدته على العناية بالمكان، وفي ختام يوم الاحتفال تبرَّم بعضُ المفجوعين واشتكوا من أن العماليق الثلاثة التهموا نصف الخروف، فتبسَّم «مسكين» ووعد بذبح خروفين في الاحتفال القادم.. الاحتفال الذي لم يقدم قط..

بعد أسابيع، أعلن رئيسُ الاتحاد أن حصيلة التبرعات لا تكفي لتحقيق ما يحلم به من إصلاحات، واقترح أن تدفع كل شقة من الشقق الخمسين بالبيت الكبير خمسين جنيها، إذا كانت مستأجرة بالنظام القديم ومستأجرها يسكنها، وخمسمائة لكل شقة مفروشة أو مستأجرة بالنظام القديم وأجَّرها المستأجرُ لمستأجرٍ بالنظام الجديد. بعضهم ابتهج بالقرار وسارع بتسديد المستحق عليه، وبعضهم امتعض وقدَّم ما عليه بيدٍ تتردد وملامح تشمئز، وبعضهم رفض فأرسل إليهم «مسكين» عماليقه فارتاعوا منهم ودفعوا المطلوب عن يدٍ وهم صاغرون. وقد ظنوا جميعهم أن المبلغ المدفوع مطلوبٌ لمرة وحيدة، فلما انقضى الشهر وطولبوا بالمبلغ مجددًا أدركوا أنه فريضة شهرية، أو فِردة، فأصابهم الهلع. لكنهم انصاعوا ودفعوا جميعًا عندما أعطى العماليقُ (علقة) موجعة، لأول معترض رفض الدفع وتجاوز حدّ الأدب فسأل بنبرة باردة معدنية الإيقاع: وهي فلوسنا الأولانية راحت فين؟

الولد «حمادة أبودومة» الساكن بالطابق الرابع من «بيت

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

العفريت» الملاصق للبيت الكبير، انفعل بما جرى لجيرانه وأخذ يهذي بكلامٍ عجيب، عن ضرورة احترام الحاكم للمحكومين والسلطان للمسطولين. هذا الولد الجامعي معروفٌ بأنه من جماعة «الدليفري» وبأنه مندفعٌ ولا يعرف مصلحته، بدليل أنه يقرأ الكتب غير المقررة عليه دراسيًّا.. تصرف «مسكين» بحكمة وأرسل أحد عماليقه لتهديد «حمادة» والنظر إليه بالعين الحمراء، المحذِّرة، حتى يعيده إلى عقله ويجعله يكف عن الاعتراض. لكن العمليقَ فشل في مهمته لأنه حين نظر بعينٍ حمراء بادله «حمادة» الأمر ونظر إليه بعينٍ زرقاء، ثم عينٍ سوداء، ثم عينٍ بألوان قوس قزح صاحبها ترقيصٌ رقيعٌ للحواجب.. وطبعًا، فكَّر العمليقُ في ضرب «حمادة» العلقة المعتادة، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، إذ أدرك أن هناك خمسة شباب من أصحاب «حمادة» موجودون عنده بالشقة، ينتظرون بفارغ الصبر وصول الدليفري.

«على العموم، حمادة ده ابننا وروح قلبنا».. هذا ما قاله الريسُ مسكين البرطوشي، وهو جالس عند بوابة البيت الكبير وحوله عدد من خيرة الجيران، عندما أخبره العمليقُ التعيسُ بما جرى من تبادل للنظرات بالعيون المتلاونة، تهديدًا واستخفافًا، وما جرى من تلعيب «حمادة» لحاجبيه وإخراجه لطرف لسانه في ختام المقابلة، وانتهاء المهمة الفاشلة. قال «مسكين» عبارته الحنون، والحنق يحزُّ في قلبه والغل يغلي بداخله، ثم استأذن من مجالسيه وقام لأداء صلاة العصر، ولحق به العمليقُ.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

صباح اليوم التالي فوجئ الجميع بمجيء العماليق الثلاثة مبكرين على غير عادتهم، وجلسوا حينًا ببؤس الكومبارس على الدكة التي نصبها «مسكين» بجوار باب البيت عقب تولِّيه الأمر، ثم قاموا ينادون عليه من وسط الزقاق إلى سماء الطابق التاسع، بصوت جهير أجش تداخلت فيه هذه العبارات: إحنا وصلنا يا حاج.. يا حاج مسكين هات لنا معاك الجنزير والسكاكين.. طلبنالك القهوة يا حاج، ما تتأخرش في النزول! وكان من الواضح أنهم لا يعلمونه بوصولهم أو يستدعونه للنزول، وإنما أرادوا إرهاب السامعين بالجعجعة الجوفاء والقعقعة المفجعة.

لم يكن «حمادة» موجودًا لحظتها بالبيت، وحين عاد عصرًا من الكلية أخبره الجيران بما جرى في الصباح، فضحك وقال باستهانةٍ: بدأت الهوهوة.. وأسعفه خياله بفكرة غريبة، هي إطلاق أسماء أنواع الكلاب الشرسة على العماليق الثلاثة، فصاروا من يومها يُعرفون بين السكان بأسماء: بيتبول، روت فايلر، دوبرمان.

ربما لو كان «حمادة» قد اكتفى بالمشاكسات السابقة لما كان قد لقي مصيره المجهول، لكنه للأسف الشديد تمادى في غيّه مستهينًا بالخطر المحدق بالمعارضين. بل تجرأ على «الريس مسكين» عندما عاتبه على تلك الأفاعيل أمام مجموعة من الجيران، خاتمًا كلامه ختامًا أبويًّا. قال له: يا حمادة، يا سُكر زيادة، كده مُش كويس!

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

فكان رد «حمادة» غير المتوقع من السامعين: كلمة (كويس) دي شكلها كده مشتقة من الكوسة، وإحنا خلاص شبعنا منها! جرى هذا الحوار قبيل الغروب، وفي صباح اليوم التالي ذهب «حمادة» إلى الكلية، ولم يعد.

مضت شهورٌ وأسرة «حمادة» تبحث عنه بلا طائل، وقد حزن عليه الجيران حينًا ثم فتر حزنهم كالمعتاد، ونسوه. وبالطبع كان الريس مسكين حزينًا على مصير «حمادة» ومتألمًا من اختفائه، لكنه كان يمزح أحيانًا في غمرة إظهاره للحزن والألم، فيقول فجأة:

طيب ما نسأل عنه الدِّبان الأزرق، هههه.

* * *

صحوتُ صباح اليوم متأخرًا عن موعد العمل، فأسرعتُ بالخروج مهرولًا عساني أتفادى خصم شهرين من مرتبي عقابًا على التأخير، حسبما تنصُّ مادة العقوبات في اللوائح الجديدة. وعند نزولي السلم مسرعًا، تذكرت فجأةً أن اليوم هو إجازة عيد العمال والفلاحين، ولا عمل فيه أو فِلاحة أو فَلاح. لكنني لم أشأ الرجوع إلى السرير للهجوع، وخطر ببالي أن أذهب إلى إحدى الحدائق عساني أجد هناك هواءً نظيفًا يساعدني في صراعي من أجل البقاء.. عند مدخل الزقاق وقفت مشدوهًا، ولم أذهب لأي مكان، فقد كان الريس «مسكين» واقفًا في قلب الزقاق وحوله العماليُّ، وكان يزعق قائلًا ليُسمع العابرين والساكنين: الوضع

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ده ما يصحِّش! جاوبته من شرفتها المنخفضة الحاجة «محاسن» وجرى بينهما الحوارُ المسرحي، الشبيه بسابقه:

ـ مالك يا سي «مسكين» زعلان ليه؟

ـ حالة الزقاق بقت زفت، ولازم نتحرك.

ـ والله عندك حق يا خويا..

ـ ..

ـ ..

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ صِنو أبيه ◊

الزقاقُ الطويل الذي نسكن به حاليًا، وكنا سابقًا نسكن إليه وفيه، يتفرَّع آخره إلى حارتين كانتا في الأصل مفتوحتين على الميدان الواسع المفتوح على أحياء البلدة كلها، وعلى كل الاحتمالات، فلما حكم «الجاشنكير» البلدة وأدرك رجال حاشيته أنه لا يحب الاتساع، تسارعوا إلى البناء في دائرة الميدان فصار أضيق، وصارت الحارتان مسدودتين بظهر المباني المخالفة للقانون الموافقة لهوى مَن بيده القانون، والحل والربط، والحِل والترحال، والحال والمآل. وهو سيدنا وتاج رءوسنا «الجاشنكير» المكين المكنَّى بأبي الاستهبال، الملقَّب لدى غالبية الناس بالماسخ لأنه يحب المسخ والفسخ والرسخ، والرسوخ فوق التخت السلطاني. ويقال إنه هو المقصود بالأغنية الفلكلورية التي يتهامس بأنغامها معارضوه للتعريض به، إذ يقول مطلعها:

والله الزمان تغيَّرت عَدَاليه،
واتقلَّبتْ قلوع المراكب،
راح السبع ياخد في يوم عادة ليه،
لقى الهلفـ ع التخت راكب.

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

البيتُ الذي يتفرَّع عنده الزقاق إلى الحارتين المسدودتين، مثلثٌ، ويسميه السكان باسم لا يعرف أحد معناه: «السمبوكسة» وفيه يعيش عددٌ وفيرٌ من أهل الحارتين والزقاق. وهو بيتٌ عتيق، يقال إنه بُني قبل عصر القهر، وقيل بل قبل إرساء الأسرات كخلايا أولى للمجتمعات، وقيل بل كان بناؤه يرجع بتاريخه إلى ما قبل التاريخ. وقيل إن هذه كلها مبالغات سفيهات، لأنه انهدم مرات لا تحصى، ثم أعيد بناؤه بأشكال لا تُعد.. ومن ثَمَّ، فلا تاريخ له.

في الطابق الأول من هذا البيت «السمبوكسة» تستكين أسرةٌ مسلوبةُ القسوة مثل الكِين، وكل أفرادها أربعة: السيدة الفاضلة أم ممدوح، والمرأة الشهية المهمَلة زوجة ممدوح، وممدوح، وابنه الصغير ممدوح.

أم ممدوح تؤكد أنها لم تبلغ بعد الخمسين، والخبثاء يؤكِّدون أن أعوام عمرها تعدت الستين، والعقلاء يقولون إنها عاشت أيامًا معدودة، شعرت خلالها بنفسها سبع مرات. ثم توالت عليها المرارات من بعد زواجها، حتى ماتت وهي حية. فلا عبرة من بعد بعدد السنوات وحساب الأيام، لأن الساكن من السنين والمثقل بالمعتاد، لا يجوز معه العد.

كانت أم ممدوح أيام عذريتها تسكن في المنزل الذي بأول الزقاق، ويقال إن الذي تزوجها كان موظفًا في الديوان العام، مهمته تحصيل المكوس من سكان البلدة وضواحيها، ولما مرَّ يومًا في تجواله المعتاد للتحصيل وحصول الحسرة في نفوس الناس، رآها

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

حين فتحت له باب الشقة فانبهر بجمالها البتولي الآسر، فاستغل نفوذه وأسقط عن شقة أبيها كل المديونات السابقة واللاحقة، وتقرب إلى أمها بحفنات يومية من الدوم والتين الشوكي المقشور، وبعد شهر تزوجها، فعرفت معنى قولهم «السعد» واستمتعت به وهي تمتعه بها، ثلاث مرات، شعرتْ خلالها بنفسها. ثم أخبرتها أمه التي كانت تعيش معهم، بأن عليهما عدم الإفراط في الخلوة، تفاديًا للإنهاك وتلافيًا للانهماك في قلة الأدب ونقص الحياء..

ولما حبلت «أم ممدوح» بممدوح، خطرت لها فكرة وجدتها جيدة. هي أن تسمي المولود، إذا كان ذكرًا، باسم أبيه ليستمر السلسال وتدوم الثوابت والكوابت. وأخبرتْ حماتها بفكرتها فاستطابتها العجوزُ التي كانت آنذاك تؤكد أنها لم تبلغ من عمرها الخمسين، مع أن الخبثاء كانوا يؤكدون أنها تعدت الستين.. يوم الولادة وإطلاق اسم «ممدوح» على الوليد، فرح «ممدوح» الأب واحتفل في سبوع ابنه بوليمةٍ أكل فيها سكان الزقاق والحارتين جميعهم، الدواجن المجمدة التي كانت قد بدأت تظهر في الأسواق، مطبوخة مع قطع الباذنجان والفلفل الحار.. كان يومًا مشبعًا من بعد طول الجوع.

* * *

بعدما رُزق ممدوح بممدوح، تجبَّر. لأنه كان يؤمن بأنه ما دام قد أنجب ولدًا يحمل اسمه فقد صار خالدًا، على اعتبار الحكمة العميقة القائلة: اللي خلَّف مامتش.. مع أن الكل، في

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

كل الأحوال، يموت! وقد اقترن شعوره الوهمي بالأبدية بجشعٍ مريع، فاستبد في تحصيل الأموال المطلوبة وغير المطلوبة، فاغتنى من المال الحرام المسروق من المال الحرام الذي يقوم بتحصيله للجاشنكير.

اشتكتْ أمُّ ممدوح الوليد لأمِّ ممدوح البليد، بأن الناس تشكو لها من ظلم زوجها. فغضبت أمه منها، وحذرتها من الوقوع في براثن الحاسدين وأهل الغلِّ، وختمت كلامها الغاضب بأنه يجب على الزوجة الصالحة أن تنصر زوجها ظالمًا أو مظلومًا. تنصره مظلومًا بالصراخ، وتنصره ظالمًا بالصمت المطبق وبعدم إعادة الإشاعات التي يحاربه بها السخفاء من الفقراء.. فقالت لها وهي منكسرة: حاضر يا خالتي.

بعد سبع سنوات عجاف، عادت أم ممدوح الصغير للشكوى فقالت لأم ممدوح الكبير، بلطف، إنه لم يعد يبتسم لها نهارًا أو يلمسها مساءً، فصاحت فيها حماتها: عيب، اختشي! فلم تجد الشاكية بُدًّا غير التزام الصمت، واستعيبت شكواها واختشت، ولم تعد من يومها تهتم بما يفعله زوجها. إذ أدركت أن حياتها مرهونة فقط بابنها، الذي منحها المرات الثلاث التي شعرت خلالها بوجودها: مرة حين تحرَّك لأول مرة في بطنها، ومرة ليلة ولدته، ومرة يوم فطامه.. وسوف يمنحها مرة رابعة، حين يتزوج ويأتيها بحفيد.

بعد مرور سبعة شهور على مرور السنوات العجاف السبع، عادت أم ممدوح للشكوى مما لم تستطع معه صبرًا، وصارحت حماتها التي لم تحمها يومًا بأن أخبارًا وصلت إليها، تؤكد أن

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الممدوح أبوممدوح على علاقة بامرأةٍ رقيعةٍ تقيم مؤقتًا بآخر بيت في الحارة اليمنى، فقالت لها حماتها إن هذا الكلام لا يجوز النطق به، حتى وإن صح، لأن للرجل القوامة وللمرأة الاستقامة. ولا يجوز الخلط بين ما للرجال وما للنساء، لأن في ذلك حسبما قالت العجوز، استهانة بالثوابت الكوابت التي يحيا الناس للمحافظة عليها.. لأنها إن ضاعت ضاعوا.

وآخرُ حديثٍ جرى بين أم ممدوح وحماتها، قبل وفاة الأخيرة بأربعة أشهر، جرى حين تأكَّدت الأخبارُ الموثَّقةُ بالأدلة الدامغة، فلم يعد ممكنًا إنكار أن ممدوح الكبير استهان بأم ممدوح الصغير، وتزوج عليها بامرأةٍ خليعةٍ غير تلك الرقيعة التي كان على علاقة بها من قبل، وكان على علاقة بغيرها من بعد. اندهشت منها حماتها التي كانت آنذاك لا تقوى على القيام من سرير مرضها الأخير، وقالت لها ما مفاده إنها لا ترى وجهًا لهذه الشكوى. فهذا دَيْدَن الرجال، فهل هناك شك في أن ممدوح ابنها من الرجال؟ ردَّت الزوجة المهمَلةُ المكلومةُ بكلام لا يعقل، مؤكدةً أنها كانت دومًا مخلصة لزوجها وهو خائن. وراضية بحرمانها منه، وهو سادر في غيه ومتابع لشوارد شهواته. ومتمسكة باحترامها له، وهو مستمسك بإهانتها.. فصرخت فيها حماتها متسائلة أين الإهانة! إذا كان قد تزوج عليكِ فعلًا فقد التزم بالشرع، وإن كان فرضًا يعرف النساء بغير زواج، فهو مسكين ندعو له بالهداية والعودة إلى سواء السبيل، وإن كان لا يقوم بواجباته فهو معذور لأنه يتعب كثيرًا في عمله، بسبب رغبة الناس في التهرب من تأدية المكوس.

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

مرت السنوات والشهور متشابهات، ومات ممدوح الكبير بعد أمه بفترةٍ لم يهتم أحد بحسابها، فانفردت أم ممدوح بالبيت مع ابنها، وتوجهت إليه بكل اهتمامها حتى شبَّ عن كل طوق وبلغ مبلغ الرجال.. وكانت المرة الأخيرة من المرات السبع التي شعرت فيها بوجودها، لحظة أخبرها ابنها بأنه تخطى العشرين وليس له عمل أو تسلية، فسألته عما يريد، فقال المعتاد! يقصد الزواج.

خفق قلب «أم ممدوح» وتلاطمت بقلبها موجات الأمومة حتى أغرقتها في بحر الحنو، فتمهلت مع ابنها في الكلام واحتالت بترقيق صوتها لتصل إلى ما يخبئه عنها:

ـ وماله يا حبيبي، حقك. بس لازم نشوف عروسة كويسة، علشان تعيش.

ـ شفت، وبصراحة يا ماما انبهرت بجمالها.

ـ خلاص يا بني، على خيرة الله. ربنا يسعدك.

.. جرت الأمور كالمعتاد، وجاءت العروسُ ذات الملامح البتولية الآسرة، وسكنت مع ممدوح وأمه في الشقة ذاتها، وعاشت في شهرها الأول عدة لحظات سعيدات شعرت خلالها بوجودها، وشعرت أم ممدوح بالقلق على ابنها فنصحت العروس بعدم الإفراط في الخلوة تفاديًا للإنهاك وتحاشيًا للهلاك. وهنا اشمأزت العروس من النصح، وقالت ما لم تتوقعه حماتها: معلش يا خالتي، بس أنا شايفة إن الموضوع ده مايصحش الكلام فيه، لا مؤاخذة يعني، دي حاجة تخصني أنا وجوزي بس.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ارتبكتْ أمُّ ممدوح لحظة، ثم استفاقتْ فقالتْ وهي تصطنع الحكمة، إنها تخشى على زوجة ابنها أن تكون حُبلى وهي لا تعلم، ولذلك يجب الحذر. فانسحبتِ العروس من لسانها، واختفت من وجهها ملامح البتولية الآسرة وهي تقول: لأ يا خالتي، أنا لسه مُش حامل، والموضوع ده إحنا متفقين على تأجيله لحد ما ممدوح يلاقي شغل، أصل يعني ما يصحش يبقى أب، وهو عاطل كده.

أسرعت أم ممدوح إلى غرفتها، كهاربةٍ من صدمةٍ لم تكن تتوقعها، وعند دخولها الغرفة فعلت شيئًا غريبًا لا صلة له بما دار مع زوجة ابنها من كلام. إذ أخرجت من بين طيّات ملابسها مرآةً وراحت تحدّق في وجهها، فلم ترَ في ابتداء النظر شيئًا. أطالت التحديق، فرأتْ في مرآتها امرأةً تكاد تكون عجوزًا، غير أن رمقًا ما لا يزال باقيًا في ملامحها، يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.. دسّت المرأةُ المرآة في مكانها، وأخذتها فكرة عجيبة لا صلة لها بما سبق، أو لها صلة. فقد سألت نفسها إن كان هناك أمل، بعد هذا العمر ومرور عشر سنوات عليها كأرملة، في أن تتزوَّج مجددًا..

ظلت هذه الفكرة الإبليسية الفاضحة تتأرجح في سرِّ أم ممدوح عدة سنوات، لم تجرؤ خلالها على التصريح بالجموح الذي هَدَرَ بداخلها بعدما فات الأوان.. كانت تواسي نفسها بأن الأوان ما فات، فهي لا تزال في الأربعين من عمرها، وليس صحيحًا أنها بلغت الخمسين حسبما تقول الأوراق والناس. الناس لا تعرف، والأوراق ليست دقيقة المعلومات.. قالت في سرها ما معناه:

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وحتى لو شهادة ميلادي وشهادات الآخرين، سوف يظل شعوري بنفسي هو الأصدق. وكلما صارحتُ نفسي بأحوالها، أخبرتني بأنني مازلت حتى اليوم خضراء كالعذراء. فما بالك لو اهتممت بنفسي، وأنقصت قليلًا من وزني، ومسحتُ على وجهي ببعض المساحيق. لكن في الأمر مخاطرة، وقد يسخر مني سكان الزقاق والحارتين، ولا أجد رجلًا من بعد ذلك، فأكون قد خسرت كل شيء. ولكن، ما هو بالضبط الذي سأخسره؟ هل في اهتمامي بنفسي خُسران!

اعتادت أم «ممدوح ممدوح» على الخَلْوة في غرفتها، والهيمان في الأمنيات المستحيلات. وذات ظهيرةٍ، أخرجتها من أفكارها زوجةُ ابنها التي طرقت باب غرفتها مرةً وحيدةً، ثم دخلت عليها كالمقتحمات عصفًا وهي تقول:

ـ وبعدين يعني يا خالتي، ابنك ده آخرته إيه؟ شكله كده مش ناوي يختمها على خير.

ـ ليه يا بنتي بس؟ ما هو ربنا هداه، ولقى شغل وبقى كويس.

ـ يا سلام. ما هي كل الناس بتشتغل، عمل إيه زيادة يعنى؟

ـ طب وانتِ زعلانة دلوقتِ من إيه؟

ـ من إهماله. أنا حاسّه إني مُش موجودة، ومُش متجوزة.

ـ عيب الكلام ده، وبعدين إنتِ دلوقتي حامل ومُش لازم تضايقي نفسك كده علشان كلام فاضي، وبعد كام شهر هتولدي وكل حاجة هتبقى تمام. ويا سلام بقى لو جه ولد، ونسميه على اسم أبوه: ممدوح.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ نعم، ليه يعنى؟! هي قلة أسامي. المهم دلوقت، قولي لابنك لو كان عاوز يحترم نفسه، يحترمني شوية ويبطل استهبال.

* * *

بعد ثلاثة أشهر، ولدت زوجةُ ممدوح طفلةً واختارت لها اسم «ماهيتاب» وراحت تدللها أحيانًا بماهي، وأحيانًا بتاب. وكانت آخر مرة رأت فيها أمُّ ممدوح أمَّ ماهيتاب، يوم سمعت الجدة بكاء الطفلة فخرجت تستطلع، فوجدت زوجة ابنها تجمع حاجياتها في كيسٍ كبير من القماش، يشبه الحقيبة، وهي ترتدي ملابس المغادرة.. استغربت أم ممدوح ما تفعله زوجته، فسألتها عما يجري. لم ترد. أعادت عليها السؤال متعطفةً ومستجلبةً أي إجابة، فردَّت عليها زوجة ابنها قبل أن تغادر الشقة وتصفع خلفها الباب: اسألي بسلامته، اللي داير يعاكس في النسوان، وقال إيه، وعد البت فوزية بالجواز. قال يعني... مع السلامة يا خالتي، وقولي له هنتقابل في المحكمة، وقال على رأي المثل «اللي خدته القرعة تبقى تاخده أم الشعور».

◊

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ بيت العفريت ◊

الناس يسبحون في بحر من الأوهام، ثم يظنون أنهم يختارون طريقهم في الحياة، مع أنهم لم يختاروا أسماءهم ولا الأُسر التي ينتسبون إليها، ولا البيت الذي يولدون فيه وينشئون ويسكنون.. السكنُ والسكونُ والسكينةُ والمسكنةُ، كلها كلماتٌ مشتقة من «الكين» الذي هو باطن حَيَا المرأة، لكن معظم العوام والخواص لا يعلمون. ولا يتعلمون.

كان مولدي، ونشأتي وسكناي، في المنزل الرابع على يسار الداخل إلى الزقاق، وهو المعروف عند الجميع باسم: بيت العفريت.. وأذكر أنني أول مرة نزلت إلى الحارة المتفرعة من الزقاق، لألعب مع بقية أقراني من صبيان الجيران، سألني ولدٌ نحيلٌ ببراءة أطفالٍ يلعبون في الحارات، عن المنزل الذي أسكنه. ولما أشرت إليه ببراءة الأطفال الذين لم يلعبوا في الحارات، قال بلا اكتراث: آه، بيت العفريت! فبقيتُ من بعدها عدة أيام حائرًا في صحة هذه التسمية، وسببها، وفي معنى العفريت.

وأتذكر أنني سألت أبي عما يحيِّرني، فأجاب كالمعتاد بأنني

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

سأفهم وسأعرف كل شيء عندما أكبر.. ثم مرت الأيام ومات أبي، وكبرت، لكنني لم أفهم شيئًا. قبل وفاته بعام أو أقل، في ظهيرة صيفية، أجلسني أبي إلى جواره واستفسر مني عن سبب شرودي وعما أفكر فيه، فقلت: العفريت.

كنت آنذاك في حدود العاشرة من سنوات عمري، وكان أبي يجلس في الصالة مستريحًا بملابسه الداخلية المتهدلة، حائلة اللون، وسط كومة الجرائد التي يتصفَّح ما فيها دومًا بعين الملل.. كأنه كان يشعر بدنو أجله، وضرورة أن أحمل الأمانة من بعده. فقد أفاض فجأةً في الكلام معي على غير عادته، وعرَّفني بكثير من الأسرار. قال إنه ولد في يوم مشهود، هو الثاني من التاسع من سنة خمس وأربعين وتسعمائة وألف، ساعة أعلنوا انتهاء الحرب العالمية. فاستبشر بمولده الجميع، واختاروا له اسما مميزا هو «شلبي» وصاروا يدللونه في طفولته باسم ساحر هو «شَـلَبوب». خشيت يومها أن يطيل أبي كلامه الذي لا طائل تحته، فسألته بمكر الأطفال الذين يظنهم آباؤهم أبرياء، عن المفيد! واستخبرتُ منه عن ابتداء معرفته بعفريت هذا البيت، وعن حقيقة العفاريت عمومًا. فأخبرني بأن في كل بيتٍ عفريتًا، لكن العفريت الذي في بيتنا نفريت. وهو مريضٌ بحب الظهور والميل إلى السيطرة وممارسة الألاعيب، ولا يعرف معنى العيب. وقد كان يعيش تحت الأرض، مع بقية العفاريت الذين لم يحققوا ذاتهم. وذات ظهيرةٍ، غامر المغامرة الكبرى وغافل الجميع، وظهر. وكان ظهوره في يومٍ قائظٍ شديد

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الوطأة، جاء بمنتصف صيف السَنة الثانية بعد الخمسين، وهو اليوم المعروف الذي صار عيدًا للمخدوعين الذين يحتفلون كل عام بالأوهام، نظرًا لأن سكان البيت مشهورون بالتدين، والمتدينون يحبون الاحتفال..

استغلالًا لهذه الفرصة النادرة السانحة، سألت أبي يومها عما إذا كان قد رأى العفريت أو تعامل معه، فضحك مستخفًا بسؤالي وقال إن الجميع يعرف العفريت ويتعامل معه، ولكن بشكل غير مباشر. لأن من طبع العفاريت النفور من المباشرة والوضوح، والميل إلى التخفي واللعب من خلف الأستار، والمرح في الليل، وفي النهار الاستتار للحفاظ على الوقار. قلت لأبي: ولماذا يتعب العفريت نفسه مع الناس؟ قال: لأنهم مصدر قوته الوحيد، وبدونهم لن يجد الاعتراف به كعفريت، نفريتًا كان أو غير نفريت. سألت: يعني، ماذا يريد منهم؟ قال: كل شيء.

* * *

وأذكر أن أمي كانت في طفولتي تتحفني كل مساء بأشهى مشروب يمكن للإنسان أن يحتسيه، بأن كانت تغلي على نيران «السبرتاية» اللبن، وفي غمرة غليانه تلقي فيه بقطعة من شوكولاتة كان اسمها (كورونا) وتقلِّب برفقٍ حتى تذوب، ثم تصبه لي في كوب معدني كنا نسميه (الكوز) فأستمتع بالمذاق القوي البديع، وتستمتع هي باستمتاعي.. سألتها مرة عمن علمها طريقة إعداد هذا الشراب اللذيذ، فقالت ببساطة إنها فكرةٌ أوحى بها العفريتُ إليها،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

فقامت بتنفيذها. صِحت لحظتها ببراءة صغارٍ أوشكوا أن يكونوا كبارًا: عاش العفريت.. بالروح بالدم، نفديك يا نفريت.

ففرحت أمي بي.

* * *

وهكذا امتزج العفريتُ بنشأتي وغاص خلالها، فصار كأنه الحقيقة التي لا تقبل الشك. ففي صباح الأحد والجمعة من كل أسبوع، كانت أمي كبقية الجيران تطلق في البيت البخور البلدي، الذي هو مجموعة من قِطع الخشب الصغار مبللة بزيتٍ عطريٍّ ومبثوث فيه كُرَاتٌ حمراء اسمها «عين العفريت».. وفي كل مرة ينفعل أحد أفراد الأسرة، أو أي واحد من الجيران، فإن وصف انفعاله هو العبارة المعتادة «راكبه عفريت».. وفي كل مرة ينهونني عن الانهماك في اللعب الطفولي العنفواني، أنا أو أي ولد آخر، يقال «بطَّل عفرتة».. وإذا أراد أبي قمع أمي، قال لها مهددًا إن العفاريت تنطُّ أمامه الآن، فتسكت من فورها.

قالوا قديمًا إن بواطن الأطفال كالشمع الدافئ، تقبل أي نقش. وقد انتقش العفريت في وعيي فصرت أراه من بديهيات الحياة، ومع ذلك فقد وجدتُ بعدما كبرت أن بعض زملائي بالعمل من موظفي الهيئة، كفّارٌ، ينكرون كل ما يتعلق بالعفريت. ويسخرون من حديثي عنه بعبارات عامية تدل على جهلهم، مثل: يا عم إيه التخاريف دي؟! ربنا يكملك بعقلك، هههه.. يا أخي اطلع من نافوخي! وحدها زميلتنا «أم يؤنَّس» هي التي كانت تهتم بكلامي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

عن العفريت، بل وتسألني دومًا عن آخر أفعاله، وكانت تؤكد القاعدة المعلومة من المجتمع بالضرورة: كل خرابة فيها عفريت! والقاعدة الأخرى المعلومة أيضًا بالضرورة، ولا يجوز التهوين منها أو الازدراء لها: لازم نُرضي الأسياد.

رضا العفريت صعب، وإرضاؤه عسير، لأنه يفعل أشياء عجيبة ولا بد لنا من قبولها. مثل حرصه على اختلاس مال الناس المخبوء، وكلما اكتشف الشخص المسروق نقص ماله المخبوء، اتهم الذين حوله وصاح فيهم بما معناه: يعني فلوسي خدها العفريت! ويثور الجدال ويحتدم، فيضحك العفريت ويمرح كلما تعالت الأصوات بالاتهامات وبالدفاعات. بعض الجيران من الأثرياء الماكرين تصرفوا في مواجهة ألاعيب العفريت ورغبته المفرطة في تجريد الناس مما يملكون، بأن لجئوا إلى حيلة لا تخطر على البال وهي إيداع أموالهم بالخارج. خارج البيت. بيد أن العفريت انتقم منهم، بإرسال الكوابيس إليهم أثناء نومهم. وأفزعهم في الظلام، ومسهم. فاستسلم بعضهم لمراد العفريت، وأعطوه الكثير مما يملكون تحت مسمى «تبرعات» فانصرف عنهم، وبعضهم الآخر هاجر وترك البيت دون نية في العودة.

ولحداثة سني نسبيًا وقلة خبرتي في الحياة، كنت أظن في البداية أن العفريت يسعى لسلب الناس أموالهم، ويضيِّع أشياءهم فقط. لكنني اكتشفت لاحقًا أن الأمر أعمق من ذلك عنده، وأنه في خاتمة المطاف لا بد أن يشعر بسلطانه التام على الناس، باستلاب نسائهم..

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

«مايسة» زوجتي هي التي نبَّهتني لذلك الليلة ووضعتني في مواجهة مع العفريت، فقد أخبرتني بعد عودتي من عملي الحر متأخرًا، بما يجري من خلف ظهري منذ فترة! قالت إن العفريت يراودها عن نفسها أثناء غيابي، ويأتيها عند نومها فتكون معه مسلوبة المقاومة تمامًا.. ثار جنوني وتأكدتْ شكوكي.

اندفعت غاضبًا إلى خارج البيت عساني أفكر بهدوء، غافلًا عن أنني بابتعادي عن البيت تركت الفرصة كاملة للعفريت، فعربد. فور خروجي من باب البيت، لمحت في الظلام الإمام «حسني بلح الزغلول» الذي يؤذن للصلاة ويؤم «زاوية الحلتيتي» المواجهة لمنزلنا. فرحت برؤيته وهممتُ إليه قبل أن يغلق عليه باب الزاوية لينام، ولما رآني مقبلًا هشَّ لي وبشَّ ودعاني للدخول إلى حجرته الداخلية حتى يعود إليَّ لوني المخطوف، فدخلت معه الحجرة المعتمة وأفضيتُ إليه بما يضطرم في صدري من النيران. أدهشني أنه لم يندهش مما حكيته، وراح هادئًا يمرر على لحيته أطراف أصابعه، ثم قال بوقار:

ـ شوف يا «مرقص» يا ابني..

ـ مرقص مين يا شيخ حسني، أنا اسمي مخلص!

ـ آه، لا مؤاخذة. المهم، موضوع العفريت ده معروف من زمان، ومعروف إن ديله نجس. وطبعًا إحنا مؤمنين بوجود العفاريت، علشان مذكورين في القرآن، إنما أحب اطمِّنك. العفريت ده بالذات، الحل سهل معاه.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ فرَّحتني يا شيخ حسني، إيه هو الحل؟

ـ إنت من الليلة دي ولمدة أسبوع، تجيبلي مراتك وتروَّح بالسلامة، وأنا هاقعد هنا معاها طول الليل، اقرأ عليها..

ـ تقرأ عليها!

قمت وتركت الكذَّاب الملتحي، واتجهت إلى الميدان الفسيح مسرع الخطوات، مختنق الأنفاس، ووحيدًا جدًّا.. نسمات المساء بوسط الميدان أعادت لي بعض الهدوء، وراقني السكون، فعقدت أصابعي خلف رأسي وعدت بظهري إلى الوراء حتى تمددت فوق بساط النجيل. شعرت براحة. لا أحد حولي ليعتب عليَّ استلقائي، أو يستغربه، أو يعتقد بسببه أنني ممسوس. السماء الغارقة في الاسوداد مزدانة بنجوم أشد سطوعًا من المعتاد، والهواء العابر رائق ولا رائحة له، فتوهمت برهةً أنني في الجنة ثم رأيت فأرًا سمينًا يمر بقربي، ففزعت وقمت من استلقائي مذعورًا ورميت نحوه بحصوة كبيرة، لكنه لم يهتم واستكمل طريقه غير عابئ بي وبما فعلت، فأدركت أنه ممسوس من عفريت يحب التجوال ليلًا.. ما هذا السكون! نظرتُ يمينًا فرأيت بيوت زقاقنا والأزقة الموازية هادئة تمامًا، ولا ضوء يأتي من أي طابق بأي بيت. ترى، ما الذي تفعله عفاريت البيوت في غمرة هذا السكون المعتم؟ ونظرتُ يسارًا فوجدت البيوت البعيدة في الحي الراقي، القريب، الذي يفصلنا عنه الميدان ومستوى الدخل والأنوار الكثيرة. ليتني كنت ساكنًا فيه. ولكن هيهات، فالواقع واقع، والأمنيات صارت كالمستحيلات..

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

لماذا تركت «مايسة» في البيت تحت سطوة سلطان العفريت؟ وماذا أفعل وحدي في قلب هذا الاسوداد الساكن.. ولماذا كانت زوجتي غير فزعة وهي تخبرني بخُطط العفريت.. وكيف لها أن ترفض الخروج من البيت معي للبحث عن حل؟ أسئلة كثيرة ولا جواب على واحد منها. لا بأس، سأبقى هنا حتى تشرق السماء بنور الفجر، ويأتي شيخ الجامع الكبير فأستفتيه في أمر العفريت الذي استبد بنا وكشف عن نواياه الحقيرة بعد طول استتار.. وسوف أتسلى حتى ذلك الحين باستدعاء بعض الذكريات السعيدة من آبار الماضي البعيدة، عميقة الغور، غائرة الأثر.

* * *

«مايسة» هي أجمل ذكرياتي. مع أن لقائي الأول بها، كان مفاجأة غير متوقعة، أو صدفة سعيدة نادرة. فبعد وفاة أبي المبكرة، قاومتْ أمي عوامل الفناء بالبكاء، وساندتني حتى توجت مسيرتي الدراسية بالنصر وحصلت على دبلوم الصنايع، وبعد فترة قصيرة نسبيًّا لم تتجاوز أربعة أعوام، استطعتُ الحصول على وظيفة ثابتة في أرشيف الهيئة العامة لرعاية العاطلين عن العمل وعن الحياة الكريمة، وهي أهم وأكبر مؤسسة في قطاع السبهللة بوزارة الاستجداء. لكن الراتب الشهري لم يكن يكفيني، فبحثت عن وظيفة ثانية حتى وجدت الفرصة في السوبر ماركت الكبير، فتحسَّنت ظروفي المالية ولم أعد قادرًا على مدافعة إلحاح أمي الدائم وتشجيعها لي على الزواج.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ماتت أمي يوم عيد ميلادي الذي بلغت فيه الثلاثين من عمري، فأردتُ إحياء ذكراها بتحقيق حلمها وبحثت عن عروس بين بنات الجيران فلم أجد بينهنَّ مَنْ تناسبني، لأنهن جميلات. ومن المتوقع أن تثير أية واحدة منهن اهتمام العفريت، وهو الأمر الذي يجب أن أتحاشاه.. سألت زملائي في العمل. فلم يهتم معظمهم بالأمر، غير أن طيبة القلب «أم يؤنس» دفعتها لسؤال الجارات والمعارف، حتى رشَّحت لي إحداهنَّ ابنة ابن عم زوجها ذات الاسم الموسيقي الرقيق «مايسة» ودفعتني لرؤيتها. فكانت المفاجأة والصدفة السعيدة، إذ وجدت العروس منتفخة الوجه خالية من الفتنة، ولا تثير الاهتمام كأنثى وفرحتُ بها أكثر حين وجدتها تؤمن بوجود عفريت في كل بيت، وتتقن كثيرًا من التعاويذ، ولا تتكلم في الأمور العمومية المهلكة، وتهوى متابعة المسلسلات التلفزيونية بطيئة الإيقاع.. هي إذن الزوجة المناسبة، وقد وضعتها الأقدار في طريقي استجابة لأدعية أمي، رحمها الله.

بعد رؤيتي لمايسة التي يدللونها باسم «ميس» مع أنها لا تعرف الميس وليس لها من اسمها الأصلي أي نصيب، أمضيتُ ستة أشهر في تفكير عميق، حتى احتك بي العفريت عدة ليلات متتاليات، فحزمت أمري والتمست من «أم يؤنس» أن ترتب لي لقاءً منفردًا مع «مايسة» في كافتريا السوبر ماركت الكبير. وقد كان، وتم اللقاء الأسطوري الذي لا يُنسى مدى الحياة، حيث جرى بيننا الحوار المحفور في ذاكرتي كالأخدود:

ـ صباح الخير يا أخت مايسة.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ صباح النور.. وبعدين؟

ـ أبدًا. كل خير. أنا بصراحة من يوم ماشفتك وأنا معجب..

ـ نعم! إنت بتقول إيه..؟

ـ قصدي يعني، عاوز أتقدم لك، ونتجوز.

ـ الموضوع ده في إيد بابا، تقدر تتكلم معاه وشوف هيقولك إيه.. فيه حاجة تانية؟

ـ كنت أحب أعرف رأيك انتِ الأول.

نظرت نحوي بعينٍ أرعبتني، وشعرتُ بأن عفريتًا سوف يركبها، فأخبرتها متلعثمًا إنني سأزورهم في البيت يوم الجمعة. وقد كان. أبوها اشترط إتمام الخطبة بعد أسبوع والزواج بعد شهر، مادامت الشقة موجودة ومفروشة منذ ثلاثين سنة، وختم كلامه بعبارة حاسمة: أما حكاية العفريت بتاع بيتكم، بنتي تقدر تعفرت اللي خلفوه! رجوته ألا يستهين بالعفريت، وأخبرته بأنه أصيل وسليل أربعة آباء من عتاة العفاريت ولهذا نسميه «أبو ربيعة» فاستهان بما أقول وقال: ولا يهمَّك منه.

يوم الخطوبة وليلة الدخول، كدتُ أطير من فيض الفرح الغامر. وأدركت في هذين اليومين، النادرين سبب تسمية الخطوبة والزواج «الفرح».

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أشرقتْ أنوارُ النهار وعلى وجهي ابتسامة السعادة بالذكريات، مع أن اقتراني بزوجتي «مائسة» غير المائسة، لم يمر عليه إلا ثلاثة أشهر.. شعاع الشمس أيقظني من السباحة في الماضي، وردَّني إلى الحاضر الحالي فقمت مسرعًا من قلب الميدان إلى شقتي، لأطمئن على امرأتي التي تركتها في إهاب أبي ربيعة.

وجدتها نائمةً، هانئةً، ولما أيقظتها تمطَّت وارتعشتْ نشوانةً وسألتني عن سبب إيقاظي لها، فأجبتها بأنني أريد أن أطمئنَ عليها وعما جرى مع العفريت. ابتسمت لأول مرة منذ زواجنا، وعاودت الاستلقاء بعدما قالت، بنبرة رخيمة:

ـ خلاص بقى، متشغلش بالك بالموضوع ده..

ـ إزاي بس يا مايسة؟

ـ عادي يعني، زي كل الناس.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ زاوية الحلتيتي ◊

أهل الحارة البحرية احتاروا في أمر جارهم العتيق «محمود محمد أحمد» المعروف بين الجيران باسم «جدو».. احتاروا في أمره لأنه بلغ من العمر عتيًّا، فما عاد يعلم ما يدور حوله وما عادوا يعلمون ما يدور في رأسه، وما هو سر إصراره على البقاء بشقته الرطبة وامتناعه عن الذهاب لأي مستشفى، على الرغم من معاناته عِللًا أهونها خرف الشيخوخة. يقال إنه تخطى السبعين، ويقال بل تعدى الثمانين، ويقول الحاج «حسَّان» صاحب المخبز المفتوح ببابين على الميدان المفتوح عليه الزقاق، إنه تخطى المائة! وهذا بالطبع مشكوكٌ فيه، كحال كل ما يؤكِّده الحاج حسان.

الجيرانُ القدامى يقولون إنهم وجدوا «جدو محمود» هنا، عندما جاءوا للسكنى. فهو السابق الذي لم يسبقه أحد. وحسب قولهم، كان يسكن معه ابنه الأشيبُ الأعزبُ المتوفى لاحقًا في حادثة مرور غير مفهومة، وامرأته العجوز التي لم يرها أحدٌ شابة. وقد ماتت من دون حوادث ودفنها زوجها إلى جوار ابنها في مقابر الصدقة، ولم يتلق فيهما عزاء، وانزوى منذ ذاك الحين في شقته الشبيهة بالكهوف الدهليزية.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الشقة التي ينتظر فيها الموت المتأخر عنه بلا سبب، هي الطابق الأرضي من آخر بيت في الحارة البحرية، جهة اليمين. وهي منخفضةٌ عن الأرض بدرجتين لأن البيت عتيق، وجدرانها التي لا لون لها ويعلو مواضعها المنخفضة اخضرارٌ شبيه بالطحلب، لكنه مائل إلى الاسوداد. عند الهبوط إليها من مدخل البيت، تجد على يسارك باب الشقة الخشبي المتهالك وخلفه صالة كالممر، في آخرها يمينًا مطبخٌ لا باب له ودورة مياه لا ينغلق بابها. ومفتوح على الصالة بابان خلفهما حجرتان، الداخلية منهما مجاورة للمطبخ المفتوح وفيها السرير النحاسي المعوجة قوائمه، وفي الخارجية المطلة على الحارة شباكٌ يكشف انخفاضه ما فيها من كراسي متكسرة وصندوقٍ كبير رديء النجارة. لو كان الناس يسمون الشقق التي يسكنون، لكان اسم هذه الشقة المعتمة الرطبة «البؤس الغامض».

* * *

بعد طول انتظارٍ وملل من طول الانتظار أدى إلى انصراف الأنظار، مات «جدو محمود» مستوفيًا أجله المديد، أو مغدورًا. فقبل وفاته بشهور جاء قريبٌ له فأقام معه ليعتني به، ويعينه على احتمال وطأة الشيخوخة. وقد استحسن سكانُ الحارتين والزقاق، ما فعله هذا القريب الغريب الواصل لصلة الرحم. هو رجلٌ بسيط المظهر محايد الملامح أشعث الشعر، وهو دائم التبسُّم للناس وإلقاء السلام على العابرين. كانوا يردون على تحيته وعلى ابتسامته

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بالكلام والابتسام، لكنهم يستغربون من نومه على الأرض في الغرفة المطلة على الحارة، المكشوفة تمامًا للعابرين، وتركه شباكها الذي كان من قبل مغلقًا، مفتوحًا. وكانوا يلاحظون أن الشيخ الفاني «جدو محمود» ما عاد يظهر مرة كل صباح، مثلما كان يفعل طيلة السنوات الطوال.. الجيران سألوا عنه قريبه فقال إنه بالغرفة الداخلية يرتاح على سريره، ثم قال إنه لم يعد قادرًا على الحركة، ثم قال إنه لم يعد يأكل ويعيش على نصف كوب من عصير القصب يشربه حسوًا كل صباح.. وسألوا قريبه عن اسمه فقال «فاضل»، وعن درجة القرابة فقال إنه ابن أخيه الأصغر «مسعود» وعن عمله فقال إنه متفرغ لفعل الخير والأعمال التطوعية ابتغاء ثواب الآخرة.

يوم وفاة «جدو محمود» أصرَّ ابن أخيه على تلقي العزاء بالشقة، ورفض تبرع بعض الجيران لإقامة سرادق بالحارة الضيقة أو الزقاق الأوسع قليلًا أو دار المناسبات القريبة من الميدان القريب، مؤكدًا أنه لا يصح إقامة المعازي في مواضع الأعراس، ولا يصح التضييق على الجيران بالسرادق السادّ للطريق، ولا يصح عنده قبول الصدقات المسماة تلطيفًا تبرعات فعرف الجيران أنه رجل حكيم، لا يجور على جار، ونفسه عزيزةٌ أبيّة.

استمر العزاء ثلاثة أيام، دون داع، قال «فاضل مسعود الحلتيتي» إن ذلك هو المعتاد في قريتهم، ولا بد من الحفاظ على التقاليد والقيم الموروثة. وخلال الأيام الثلاثة، كان يأتي معزُّون يرتدون الجلابيب، ويبقى بعضهم في الشقة مقيمًا مع «فاضل» حتى صاروا قرابة العشرة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أشخاص.. لم يهتم أحد بوجود هؤلاء، إلا مالك البيت «الأستاذ حامد شحاتة» الذي كان أبوه قد اشترى البيت قبل عشرات السنين، بمبلغٍ زهيدٍ، يصفه كبار السن بأنه: «تراب الفلوس!» مع أن الفلوس ليست أحجارًا تحتك حوافها فتكون ترابًا.

بعد انتهاء أيام العزاء، خلع مالكُ البيت رداء الوقار المصطنع وذهب مع اثنين من الجيران لإخبار «فاضل» بأنه ينوي منذ فترة ترميم مدخل البيت ودهان واجهته، وقد كان سابقًا يتحرج من إزعاج المرحوم. أما الآن فيجب إخلاء الشقة، تمهيدًا لتخزين اللوازم والبدء في العمل فورًا اعتبارًا من بعد غد.. أظهر «فاضل» الحرج وهو يقول إن ظروفه المالية لا تسمح حاليًّا بالمساهمة في عملية ترميم البيت هذه، فصاح فيه صاحبُ البيت: انت حدّ طلب منك حاجة، وانت تساهم أصلًا بصفتك إيه؟

ـ ساكن..

ـ نعم يا اخويا، إنت ساكن هنا!

ـ طبعًا، كنت ساكن مع المرحوم عمي، ألف رحمة ونور تنزل عليه.

ـ عمك مين؟

ـ عمي المرحوم محمود، ربنا يبشبش الطوبة اللي تحت راسه. وعمومًا، أنا أول كل شهر هادفع الإيجار، يعني الاتنين جنيه. ولو تحب، ممكن أدفع لك الفلوس مقدم، بالسنة. بس طبعًا،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

لازم الأول تغير عقد الإيجار باسمي. ده حقي القانوني، ولعن الله قومًا ضاع الحق بينهم.

نظر مالك البيت إلى صاحبيه كالمستنجد، فتكلم أحدهما على مهل قائلًا إن (المرحوم) عاش عشرات السنين هنا، دون أن يعرف الجيران أقرباء له، وكان من المعروف عنه أنه مقطوع من شجرة! فقاطعه «فاضل مسعود» بصوتٍ عالٍ، مؤكدًا أن عائلتهم كبيرة العدد، وفيها من الرجال ما يسد عين الشمس.

كأن كلمة «عين الشمس» كانت هي الإشارة المتفق عليها. لأنه فور نطقه بها، أتي من الغرفة الأخرى الرجالُ الغرباءُ الذين جاءوا للعزاء فأقاموا، وكانت وجوههم طافحة بعلامات الغيظ المصطنع.. ملئوا زوايا الغرفة وتداخلت أصواتهم ذات اللكنة الريفية، فتطايرت في سماء الغرفة وتماوجت عباراتٌ من مثل: أستغفر الله العظيم.. حقنا محفوظ ومحدش يقدر يظلمنا.. هي الناس جرى لها إيه، بس برضه ربنا موجود.. إحنا نروح القسم.. اللي يفرط النهارده في بيته وأرضه، بكرة يفرط في عِرْضه.. إحنا محدش يقدر يضحك علينا! ولما أشار إليهم «فاضل مسعود» بالسكوت، فلم يسكتوا، قام فصفع أحدهم بقوة فاستجابوا والتزموا جميعًا بصمتٍ ظاهره سكونُ القبور، وباطنه حقدٌ يمور. كان الجيران قد تجمعوا أمام الشباك يشاهدون الجدال الذي احتدَّ والحيرة تطل من عيونهم، والهمهمات تعلو فيما بينهم، بما يدل على تفرق آرائهم كالمعتاد في كل المواقف.. قال مالك البيت محتجًا، إن «المرحوم» لا

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

يطابق اسمه اسم المدعي، فقاطعه: أنا اسمي «فاضل مسعود محمد أحمد» وعندي طبعًا إثباتات، والمرحوم عمي اسمه «محمود محمد أحمد» ونَقب العيلة بتاعتنا «الحلتيتي» بس مَهُوَّاش مكتوب في الورق الرسمي، زي كتير من العائلات الكبيرة!

ـ هوَّ يعني علشان فيه تشابه أسماء مالوش لازمة، عايز تستولي على الشقة! ده كلام برضه.

ـ أيوه هو ده الكلام. وأنا على العموم كنت حاسس إن هتحصل مشاكل، وعلشان كده رُحت عملت لك النهارده الصبح محضر في القسم.

ـ نعم.. محضر!

ـ أيوه، محضر عدم تعدي. يعني اوعى الشيطان يخلِّيك تفكر تعتدي علينا.

ـ أنا اعتدي عليك إنت والبغال دول، إزاي يعني!

«إنت راجل قليل الأدب».. قال ذلك أحدُ البغال الذين كانوا معزِّين ثم صاروا مُعتدين ومعاونين للمحتل، ولم يكتف بذلك وإنما قذف مالك البيت بقطعة خشبٍ من تلك المسنَّدة في زوايا الغرفة، فالتهبت الأجواء وساد الهرج. أسرع مالك البيت وصاحباه بالهروب فزعين، خصوصا أن «فاضل مسعود الحلتيتي» أخرج من بين طيات ملابسه سكينًا طويل النصل، وأغلق أحد معاونيه الشباك فحرم الجيران المتجمعين في الحارة كالخراف، من متعة المشاهدة. وكما هو متفق عليه سلفًا، دخل «فاضل» إلى الغرفة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الداخلية وجرح كتفه فتلطخ جلبابه بالدم، وخرج يجري أمام الجميع قاصدًا المستشفى الحكومي القريب للحصول على تقرير طبي يُرفقه بالمحضر، ولخياطة جرحه غير الغائر وغير المستدعي خياطة، ونَفَح الممرِّض (التمرجي) الذي خاط.

* * *

لم تنجح جلسةُ الصلح التي عقدت بآخر الحارة، فذهب الطرفان إلى المحكمة الحكومية التي قضت كالمعتاد بأحقية «فاضل الحلتيتي» في الحصول على عقد إيجار، باعتباره وريثًا لعمه المتوفى. وصار صاحب البيت خائفًا يترقب، ومهددًا بعقوبة اعتدائه المزعوم على الوريث المزعوم الذي صار مالكًا للشقة طيلة العمر، بعقد إيجار رسمي.. ويوم صدور الحكم بعد شهور التقاضي، احتشد كثيرون بالحارة وحاولوا تلطيف الأجواء خشية أن تعود للالتهاب. ويومها رفض «فاضل» المبلغ الكبير المقترح للتنازل عن (حقه) في الشقة! وأعلن بصوتٍ عال ليسمعه الجميع، أنه سوف يقابل سيئات مالك البيت بالحسنى، ويتنازل عن (حقه) في واقعة الاعتداء عليه بالسكين. مؤكِّدًا أنه سيفعل ذلك، ليس من أجل صاحب البيت وإنما لأجل خاطر أولاده الصغار الذين قد يتشردون إذا دخل أبوهم السجن عقابًا على ما اقترف.. وعبثًا ظل صاحب البيت يقول للحاضرين إنه لم يقترف شيئًا، فقمعه الجيران بقولهم إنه لا داعي الآن لتقليب المواجع، ردَّدوا العبارة المعتادة: «الصلح خير».

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

هدأت الأمور عدة شهور، ثم عاد الخلاف فتشاغل أهل الحارة مرةً أخرى بمجريات الأحداث الجديدة التي بدأت بقيام «فاضل الحلتيتي» بفتح شباك الغرفة المطلة على الحارة، بابًا! وفرَش أرضيتها بالموكيت الأخضر، لتحويلها إلى مصلى مفتوح.. مالك البيت اعترض فلم يجد مستمعًا لاعتراضه، وذهب إلى قسم الشرطة لتحرير محضر فقيل له هناك: اتق الله.

الأستاذ «زكي قزمان» الساكن في الطابق الثاني من البيت، أقنع المالك «حامد شحاتة» بتقديم شكوى لمكتب أمن الدولة، تتضمن بلاغًا بأن شبابًا ملتحين يأتون إلى المصلى فجرًا بجلابيب بيضاء لأداء الصلوات، وهم غرباء عن المنطقة.. ارتجف قلب مالك البيت وشطحتْ أفكاره شهرًا، ثم استجاب لهمس الأستاذ ووسوسة «زكي» واطمأن له أكثر حين أبلغه بأنه لن يتركه وحده، وسيذهب معه لتقديم البلاغ.

ذهبا معًا مرتعدي الفرائص، يتلفتان، وبعد انتظار طويل قابلهما هناك رجل متجهِّم، أنصت إليهما طويلًا حتى انتهيا ثم قال لهما بوجه عابس: خليكم في حالكم! في طريق عودتهما إلى الحارة فرحين بالنجاة من المجهول، وصامتينِ تمامًا، قرَّر كل واحدٍ منهما قطع صلته بالآخر. ندمًا على الاندفاع. وعند وصولهما وجدا «فاضل الحلتيتي» يضع على الرصيف المجاور للباب (فاترينة) خشبية لبيع المسبحات الملونة وزجاجات العطر الصغيرة والمصاحف. الرصيف والفاترينة لا يزيد عرض كليهما عن شبرين. وطبعا

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

التزما الصمت ولم يعلق أحدهما بكلمة، فقال لهما «فاضل» متهكِّمًا على التحية التي لم يتفوَّها بها: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

مع مرور الأيام تغيرت هيئة «فاضل» وصورته، فصار بدينًا حليق الرأس والشارب، عابسًا، طويل اللحية، يحوطه دومًا جماعة من الشباب النحيل الملتحي الذين يغضُّون البصر تأدبًا حين يسمعون صوت امرأةٍ وحين تمر بهم أنثى أو يمرون بها.. وفي فترةٍ قصيرةٍ جرت عجائب كثيرة، كان منها أن بعض الجيران صاروا يتبرعون للزاوية التي عمرت، ويتوقون للقاء «فاضل الحلتيتي» في غرفته الداخلية كي يفتيهم في الأمور الحياتية المهمة مثل كيفية ردّ يمين الطلاق، والطرق الشرعية والأدعية واجبة التلاوة عند الدخول على الزوجات، وإلى المراحيض. ويتعلمون منه الأدعية اللازم تلاوتها عند الصحو من النوم وعند النوم بعد الصحو، وما بينهما من أوقات وأفعال وحركات وسكنات. وبالإضافة إلى ذلك، طبعًا المهام المهمة الموكولة لنواب الله في الأرض مثل فكِّ السحر ودفع العجز الجنسي الناشئ من الأعمال السُّفلية وسوء التغذية وتلوث الهواء والمأكولات. واعتاد الجيران على هذه العجائب العلاجية، إلا من كان منهم ضعيف الإيمان زائغ اليقين مريض الوجدان، فصارت الزاوية قِبلة كثيرين من سكان المنطقة واشتهرت الحارة التي كانت دومًا بلا اسم، باسم «حارة زاوية الحلتيتي».

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

«دوام الحال من المحال».. هذا ما قاله الأتقياءُ من الجيران تعليقًا على الفتن التي أقبلت على الزاوية مثل قِطع الليل المظلم، بعدما كان هذا المكان واحة استراحة للقلوب المملوءة باليقين التام. وقد اجتهد بعض هؤلاء الأتقياء في تفسير الاضطرابات الأخيرة، مؤكدًا أن الشيطان سلَّط أعوانه المجرمين للنيل من الصفوة المخلصين. وانفرد «زكي قزمان» بتفسيرٍ غريبٍ ظل يهمس به فيرفضه معظم السامعين، خلاصته غير المفهومة أن الحارة تعرضت لغزو فكري! كان كثيرون يضحكون من هذا التفسير التأويلي الحلزوني المذموم.. أما الفتن التي حدثت فأثارت كل هذه التفسيرات والتأويلات، فقد بدأت عندما قال شابٌّ جامعيٌّ جاهلٌ كان يدرس بقسم الجغرافيا بكلية الآداب، إن المحراب المرسوم على جدار «زاوية الحلتيتي» وإليه يتوجه المصلون، لا يشير إطلاقا إلى جهة القبلة! وقد بلغ هذا الكلام مسامع الشيخ فاضل فرد عليه بكلمتين كانتا هما الأبلغ.. قال: وأينما تولوا.

الشابُّ الجاهلُ الجهولُ لم يكفّ عن ترديد الترهات المؤذية لحضرة الشيخ، ولم يتعظ عندما وضع الله في طريقه مجموعة من الشباب الذين طرحوه أرضًا وأوسعوه ضربًا. وادَّعى أنهم كانوا من أعوان الشيخ لكن معظم الناس لم يصدقوا كذبه، وقالوا إنها مجرد مصادفة، فخافت عليه أمه من تكرار وقوع المصادفات وأرسلته ليعيش مع خالته في بلدة بعيدة، فانقطع عن المنطقة وعن الدراسة.. واستراح الجميع.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ثم وقعت بعد ذلك فتنةٌ أخرى، حين سأل أحدهم الشيخ في المجلس المسائي المسمَّى (الدرس) بنبرة استهزاءٍ، عن معنى كلمة «الحلتيتي» فرد الشيخ «فاضل» بهدوئه المعتاد قائلًا بثقةٍ: يعني طيب الرائحة.. فصاح صاحبُ السائل الجالس إلى جواره: ده كدب! فنال على قفاه صفعة قوية، وأُخرج السائل وصاحبه من المجلس طردًا، وتم تحذيرهما من العودة فانقطعا عن المكان.. وتم وأدُ الفتنة في مهدها، ولم يكتشف أحدٌ معنى الكلمة.

أما الفتنةُ الكبرى التي تصطخب هذه الأيام، ويختلف حولها جيرانُ الحارتين والزقاق بل وسُكَّانُ المنطقة كلهم، فهي فتوى «الشيخ فاضل» بأن سكان الحارتين والزقاق يجب عليهم أداء الزكاة إليه كي يصرفها في وجوه الخير.. وطبعًا سارع كثيرون لتنفيذ الفتوى فحصلوا على دعوات الشيخ بالبركة وكثرة المال وحسن المآل، أما الرافضون فقد صبر عليهم الشيخ فترةً، وتريث، ثم ألحق فتواه بفتوى أخرى تقول إن الذي لا يؤدي الزكاة مرتدٌّ، ويجب أن يحاربه المؤمنون حتى يعود كالفراريج إلى حظيرة الدين. احتج المرتدون بأنهم يدفعون الضرائب للحكومة والضريبة كانت تسمى قديمًا الزكاة، فكيف يدفعون مرتين لمجرد الخلاف في التسمية؟ ومع أن الشيخ أفحمهم بقوله إن الحساب يوم القيامة سيكون على أداء الزكاة الشرعية، لا تسديد الضرائب الحكومية. وإن بيت المال يختلف عن الخزانة العامة! وإن حدَّ الحرابة لا يصح تطبيقه على المتهرب من الضرائب لكنه واجب على الممتنع عن أداء الزكاة.. ولكن، وعلى الرغم من هذه

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الحجج الشرعية الباهرة القاهرة، والفتاوى العبقرية اللوذعية الدامغة للأدمغة، فإن الروافض لحكم الدين أصروا على غيِّهم وسَدَروا في ضلالهم، ولم يعطوا الزكاة للشيخ. بل افتروا عليه بزعمهم أنه أمر أتباعه بإحراق شقة الحاج حسن المنصوري تاجر الموبيليا، لأنه كان قد صاح في قلب الحارة قبل يومين من اشتعال النار بشقته، معلنًا كفره، بقوله الفاجر لأحد تلاميذ الشيخ: أنا مش دافع مليم، واللي هيطلب مني فلوس هاقطع لسانه بعون الله! فعاقبه الله بخلل في الكهرباء جعل النيران تلتهم محتويات شقته في قلب الليل، وكاد أن يقع في المعصية الكبرى ويذهب لتحرير محضر بالواقعة، ولكنه ارتدع عن ذلك حين علم أن أعوان الشيخ «فاضل» هم الذين أنقذوا أسرته من الحريق الذي التهم كل شيء، وأن الشيخ نفسه تأسف على حال المحروق منزله وأفتى بأنه سوف يُعفى من أداء الزكاة لمدة عام، بشرط أن يستغفر الله سبعين مرة.. فاستغفر الرجلُ وسكت من بعد ذلك عن الشنيع من الكلام القبيح، وعن التصريح بالكفر الصريح.

* * *

المشكلة المثارة الآن في الحارة، أن الشيخ الحلتيتي انتقل للسكنى في شقة مقابلة للزاوية، وهو يريد توسيع الزاوية بإزالة الحوائط الفاصلة بين الصالة والغرفة الداخلية، وتحويل دورة المياه والمطبخ إلى ميضأة.. لم يعترض معظم الناس على ذلك، لكن المهندس «سامي خليل» الساكن بأول الزقاق، يزعم أن البيت

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الذي فيه زاوية الحلتيتي مبني بالطريقة القديمة المسماة هندسيًّا «الحوائط الحاملة» ولو أزيلت الفواصل بين الغرف، فسوف يسقط البيت على رءوس ساكنيه.. كلامه عجيب.. والأعجب منه أن بعض الجيران من ذوي النزعة الإلحادية يؤمنون بمزاعم المهندس هذه، وينشرون افتراءاته بين الناس.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ سكان السطوح ◊

مرت أسابيعُ بعد عبور أبي إلى النهار، فتوهَّمتُ أنِ استرحتُ من وصيته الأخيرة المربكة. لكنه جاءني ليلة أمس، منامًا، وأعاد عليَّ ما كان يوصيني به مرارًا وتكرارًا مريرًا، قائلًا: لازم تحل مشكلة السطح! العجيبُ هنا أن المرحوم أبي كان يُفاخر بأن إحساسه عالٍ بالأمور المهيأة للتفاقم، ولطالما استطاع علاج جسام المشكلات بأقل جهد، لمبادرته إلى حلِّها قبل أن تظهر. وكان يتنهَّد راضيًا بعد اختتام كلامه عن مآثره هذه، بالعبارة المعتادة: الوقاية خيرٌ من العلاج! لماذا إذن لم يُنه هو مشكلة سكان السطح، وأوصاني بحلِّها وهو يعرف أنني قليل الحيلة؟ فعلًا، أمره عجيب.

قبل وفاته بفترة، رافقته في تطوافه اليومي بحوافِّ الميدان الفسيح، المفتوح عليه زُقاقنا، وسألته يومها عن سبب تسويفه وعدم تدخُّله في مشكلة سطح بيتنا التي تفاقمت، فقال وهو يهزُّ عُكَّازه إنه لا يحب الكلام أثناء المشي، لأن هذا وقت التفكير وليس التفسير. وأمرني بالصبر حتى يُتمّ دورة طوافه السابعة، ثم نجلس بمقهى «الفُرجة» فيقصُّ عليَّ القصص هناك وهو يحتسي الينسون.. وقد كان.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

موضوع السطح بدأ وبدا في أوله هينًا، ثم تعقَّد فأضحى مُشكلة تعاظمت رويدًا حتى أمستْ مُعضلة. وأبي لم يشهد البدايات لأنها أسبق زمنًا من مولده، إذ يُقال إنها كانت أيام جَدِّي، وفي قولٍ آخر إنها بدأت أيام جَدّه، فهو الذي اجتهد حتى وجد قطعة الأرض وبنى عليها البيت العريق الذي نسكن فيه الآن، وبه نُبتلى.. في ذاك الزمان، لم يكن هذا الميدان معيَّن الشكل، محدود الجوانب بهذه الشواهق. وكان هذا المقهى مجرد «تعريشة» يأوي الناس إلى ظل أشجارها، ويحترسون في طريقهم إليها من النقائع التي تنزُّ بالماء وقت فيضان النيل. وكما هو معروف، كان الخير آنذاك وفيرًا والإنسان إنسانًا. وقبل أن يستقيم الزقاقُ بالبيوت ثم يتفرَّع في حارتين، تمَّ بناء بيتنا بإشراف مهندس مصري من أصل يوناني أو إيطالي، وهو الذي وضع أصلًا تصميمه بحيث يليق بسُكنى الناس. غير البؤساء، فكان بيتنا من يومه الأول على ما هو عليه الآن: ثلاثة طوابق عالية، في كلٍّ منها ثلاثُ شققٍ فسيحة، في كلٍّ منها ثلاثُ غرفٍ (يجري فيها الخيل) بحسب التعبير الذي استعمله أبي.

وكان سطح البيت خاليًا إلا من جدران رقيقة تفصل بين تسع حجراتٍ غير مسقوفة، ليستخدمها السكانُ في نشر الغسيل أو لتخزين ما لا يلزم الاحتفاظ به في شُققهم الأنيقة. وفي وسط السطح، كان هناك خزان مياه كبير لتأمين اندفاق الماء من علِ! صحتُ بالسؤال مندهشًا: وهل هُدَّ هذا الخزان؟ فصاح فيَّ بما معناه: لا تقاطعني، واسمعْ تعِ، واعلم أن العجلة من الشيطان

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

إنه طيلة النهار يراقب الفراغ المحيط بالبيت، وهذا عملٌ لو تعلمون عظيم.. احتاروا في أمره فترة، اقترح عليهم الحل فوافقوا، فأحضر قريبًا له ليعمل مساعدًا. وأخبر الناس بأن مساعده الجديد اسمه «مُساعد» فانخدعوا بذلك واطمأنوا إلى حين.

وصار «مساعد» هو الذي يراقب العصافير التي تطير حول البيت نهارًا، ويتولى «جميل» الحراسة ليلًا والسهر في سرداب أحلامه المستحيلة مع محبوبته الغافلة عنه، وعما يعانيه ويعاني منه.

لكن السطو على السطوح تكرر، فاهتاج السكانُ. لاسيما أن إحدى الجارات رأت السارق يمرُّ من أمام البواب بلا اكتراثٍ، وهو مُحمَّل بما نهبه من فوق السطح. فاحتدّ أحدُ السكان، وكان أصله من الصعيد، فقال للبواب إنه ومساعده لا خير فيهما وعليهما أن يتركا العمل لمن يستطيعه، وقال للجيران إن عليهم استبدال هذا البوَّاب ببوَّاب ذي مهابةٍ تُرهب «حرامي الغسيل» وتردعه عن تلك الجرأة منقطعة النظير.. تدخل في النقاش ساكنٌ عطوف، رقيق القلب، فسأل البواب بلطفٍ عما إذا كان يعاني من أي مرض، أو لديه مشكلة في النظر؟

ـ أبدًا يا عاطف بيه، أنا صاغ سليم.

ـ طيب، إزاي الحرامي يعدِّي قدامك وإنت سرحان كده؟

ـ واللهِ ما عارف.. أكيد بيقرا تعويذة.

ـ تعويذة. إزاي يعني، هيكون بيقول إيه؟

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ ربّ اجعلْ من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فاجعلهم لا يبصرون.

* * *

راح السكان يبحثون عن بديل للبواب، وهم غافلون عما يفعله من استقدام أقاربه للسكنى معه، وأثناء ذلك جرى أمران لا صلة بينهما إلا عند علام الغيوب. الأول أن السُّكان كَفُّوا تمامًا عن استعمال السطح وعن الصعود إليه، والآخر أن «نفوذ» المدللة باسم «صوفيا» تزوَّجت وتركت بيت أهلها إلى بيت أهل زوجها، فأصيب «جميل» البواب بهوسٍ خفيٍّ.. وفي يوم شتويٍّ دافئ جاء السكان برجلٍ نحيلٍ عليه حُلة من الذِّلة، ليكون مكان البواب الفاشل. وهنا فوجئ الجميع بجميل وقد خرج إليهم من مكمنه الكائن تحت السلم، وهو يرتدي عباءة مزركشة الأطراف بوشى يلمع كالنياشين، يحوطه ويسير وراءه قطيعٌ من أقاربه وقال لهم بنبرة الواثقين إن زمن الظلم انتهى، ولن يتولى الأمر أحدٌ غيره. وأشار لأقاربه بطرف عصاه اللينة إلى الرجل الذليل المجلوب، فاختطفوه وأوسعوه ضربًا وشتمًا، ففرَّ هاربًا.. وارتاع السكان.

وفي غمرة الارتياع، أعلن البواب أنه لن يُسمَّى من بعد اليوم بوابًا، وسوف يتخذ لقب «الحارس». ومن يحرص على سلامته الشخصية من السكان، يجب عليه أن يتأدَّب فلا يعترض ولا يحلم بالاعتراض.. وسكت لحظةً استمتع فيها بذهول السكان، ثم استكمل كلامه مؤكدًا أنه جاء للعمل هنا على أساس واضح، هو

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أن خادم القوم سيدهم. فمن يحرص على سلامته الشخصية، عليه أن يتأدَّب فلا يعترض ولا يحلم يومًا بالاعتراض. وختم كلامه المكرَّر بتكرار أن العصا خُلقت لمن عصى والتعريض جُعل للمعترضين، والرضا بالقضاء والقدر هو عنوانُ التقوى وسرُّ السلامة. ولا بديل عن ذلك إلا الندامة. فمن يحرص على سلامته وسلامة أسرته، عليه بالأدب ومكارم الأخلاق، والتعامي إذا عزَّ عليه العمى. فلا يخطر على قلبه هاجسُ الاعتراض، فالمعارضة هوي يهوى بأهله إلى السهيقة السحيقة. فهل يريد أحدٌ منكم أن يذوق السهيقة السحيقة؟! سأله أحدُ السكان وهو يتحسَّس ألفاظه عن معنى السهيقة؟ فزعق فيه حارسنا: اخرسْ.

فخرس، وخرص.

* * *

الوحيد الذي حاول في ذاك اليوم الاعتراض، وبالأحرى فكَّر فيه. كان الساكن الصعيدي الذي جعله الحارس عبرة.. إذ خُرِّبت شقته واستباحها صغارُ الحراس وبعض المذءوبين، فحمل عاره ورحل عن البيت في صمتٍ واستقر في الضاحية الصحراوية التي يُستعبد فيها الذين كانوا أعزاء.. وانقطع من يومها خبره.

* * *

خيرةُ السكان هجروا البيت وهاجروا إلى الأحياء البعيدة، وفي خلال تلك السنوات استوطن السطح أعوان الحارس وعائلاتهم وفيرة التعداد، ثم استقدموا المزيد من أقاربهم ومعارفهم الذين

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

على شاكلتهم. فازدحم بهم السطح وفشا فيهم التسطيحُ والأفعالُ العجيبة، فكان من ذلك أنهم كانوا إذا اشتد في الصيف حَرُّ الظهيرة، يصعدون سلم خزان المياه الذي أسموه (المسبح) ويلقون أنفسهم فيه بملابسهم، وهم يبتهجون كحالهم في أيام الأعياد، مما اضطر الباقين من السكان لتركيب مواتير ترفع إليهم الماء، من دون مروره على الخزان.

وكان من أفعالهم العجيبة بالسطح، أنهم زادوا عدد حجرات الغسيل التسع، فجعلوها تسعين. وليتهم اكتفوا، بل قاموا بناءً على نصيحة أحد الحراس الصغار الذين صاروا مع مرور الوقت كبارًا، بسقف الحجرات بجريد النخل وأفلاقه، وبنوا فوقها أكشاكًا خشبية أسموها: «الفيلّات الشعبية».. ويقال إن عدد سكانها، بلغ مؤخرًا أضعاف عدد القاطنين بقنوط في حجرات السطح التسع التي صارت تسعين جُحرًا، على باب كل جُحر منها مكتوب بخط رديء: الثقة بالله وبه نستعين. آمين، آمين، آمين.

لكن أعجب ما جرى فوق السطح، هو ما وقع مؤخرًا، إذ انتشر بين سكانه مرضٌ غريب وسببه مريب، هو المرض المسمى بينهم باسم محيّر «أبوالنوم».. وهو مرضٌ مزمنٌ، له عرضٌ وحيدٌ هو النعاس والوسن، ليلًا ونهارًا. ومن يوم انتشار هذا الوباء بينهم، وهم ينامون ولا يصحون من نومهم، إلا لنوم آخر! ومع أنهم نيامٌ إلا أنهم لا يحلمون، ولا يأمنون في اليقظة، ولا يحبون الاستفاقة. وقد أفهمهم الواعظ الساكن معهم، المشهور بينهم باسم «كتكوت»

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أن السكوت والسكون لا يكفيان لشكر السماء على تلك الهبة التي تُقرِّبهم من معجزة أهل الكهف، وهو ما جعلهم يؤمنون بأن النوم الذي يعقبه نوم ويسبقه نومٌ، هو علامة الفوز الدائم كل يوم.

.. ومع مرور الأيام واحتدام الحال، طرد شخيرُ سكان السطح سكان الشقق، فصارت طوابق البيت مرتعًا بديعًا للفئران. ولم يعد يسكن هنا إلا ورثة البيت، ولم يبق من هؤلاء الورثة إلا أنا وأبي الذي عرج إلى النور قبل شهور أو أعوام، وأوصاني قبل وفاته بما أوصاه به أبوه قبل وفاته:

ـ لازم تحل مشكلة السطح.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ يقين المساكين ◊

الهوسُ المحمومُ احتدّ حتى استباح أحلام الجيران جميعهم، فانهمكوا فيما شاع فيهم وفشا بينهم من أخبارٍ عجيبة، أثارت عواصف الطمع العاتية وأنواء الأماني المائعات الخادعات، فجعلتهم يخرِّبون بيوتهم بأيديهم. مساكين. لم تثبت قواعد عقولهم أمام متناثر التهامس المؤكد أن الولد «فادي» المحظوظ عثر على كنز كان مخبوءًا بسرداب عتيق، يقع تحت أرضية شقته الأرضية الكامنة بالطابق الأول، من المنزل الرابع على يسار الداخل إلى الزقاق. وهو المسمى بيننا «بيت النُّوس» لأن آخر مُلاكه علّق على بابه يوم اشتراه، دمية تتدلى من سلسلة مُعلقة من أعلاها بكفٍّ خشبي، خماسي الأصابع، لدفع الحسد عنه.. هذا هو المشهور بين الناس لتفسير تسمية البيت بهذا الاسم الطريف، مع أن بابه المتهالك فاقد اللون لم يعد معلقًا فيه أي شيء منذ سنوات، إلا غلالات العناكب.

لا أحد يشك في أن هذا البيت عتيقٌ، ومعمورٌ منذ زمن بعيد. لكن الخلاف واقع بين الجيران في أقدميته، بالمقارنة مع المنزلين المجاورين له. إذ يلاصق من جهة «بيت فرعون» المعروف عند

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

معظم الجيران بأنه أول بيتٍ بناه الغابرون، ومن الجهة الأخرى يلاصق «بيت الهوانم» الذي يعتقد بعض جيراننا أنه الأقدم، بدليل اتساعه وارتفاع أسقف طوابقه الثلاثة. مما يشير بوضوح إلى أنه بُنِيَ في زمن العماليق، المعروفين باسم «الطيطان».. لكن جارنا الشيخ «شحاتة البردقوشي» الواثق دومًا مما يقول، يقول إن المنازل الثلاثة بُنيت معًا في زمن الجاهلية الأولى، وتم ترميمها مرتين. الأولى في زمن الجاهلية الثانية، والثانية في زمن الجاهلية الثالثة. وهو متيقنٌ تمامًا من ذلك! لكن جارنا المهندس «سامي خليل» يسخر من هذا اليقين ويؤكِّد أن منازل الزقاق كلها لا يرجع تاريخ بنائها إلى أكثر من مائة عام بأي حالٍ من الأحوال، وأن «بيت النّنوس» أقدم من «بيت الهوانم» والأقدم من كليهما هو «بيت الفرعون» والبيوت الثلاثة مبنية بطريقة الحوائط الحاملة، التي كانت هي الطريقة الشائعة في ذاك الوقت. وهو يسخر هامسًا مما يسميه تخاريف البردقوشي، ويصفه بأنه مجرد رجل «مَرْزنجوشي»، وهي كلمة لا أحد هنا يعرف معناها، لكنها فيما يبدو خطيرة.

«فـادي» ولدٌ مؤدب محبوبٌ من معظم الجيران، أو هو بالأحرى كان محبوبًا قبل وقوع الوقائع الأخيرة المحيرة، التي جعلته في الفترة الأخيرة حديث جميع الجيران. وهو (حيلة)، أي وحيد أمه وأبيه. فقد تأخر «أبو فادي» في الزواج حتى بلغ من العمر التاسعة والأربعين، فلما (كوّن نفسه) وفقًا للتعبير العامي الغامض، أو (استطاع الباءة) وفقًا للتعبير الفصيح الأكثر غموضًا. اقترن بفتاة عانس في الخامسة والعشرين من عمرها فأنجبت له

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

من فورها «فادي» فاكتفيا به، فيما يقولان. وفيما يقال تهامسًا فإن عِنّة لحقت بالأب، فلم يستطع أن يؤاخي وحيده. ويقال بل هو قرار الأم التي نصحها الأطباء بألا تنجب ثانية، لأن قلبها ضعيف ولن يحتمل جريان دورتين دمويتين بجسمها مجددًا.. وبصرف النظر عن هذه الأقاويل وتلك الأخاييل، فإن أسرة «فادي» ثلاثية الأفراد معروفةٌ بأنها عائلة وديعة، ولا يعرف أحد أنهم اشتبكوا مع أحد يومًا في عراك. ومن لطائف أمورهم أنهم مولودون في شهر واحد، ولهذا فهم يحتفلون بعيد ميلادهم الثلاثي كل عام، في ليلة النصف من هذا الشهر.

بدأت الأحداثُ الحاليةُ المهولةُ، هادئة، ففي الليلة التي احتفل فيها أبو فادي يحتفل بعيد ميلاده الماسي، وأمه بعيد ميلادها الذهبي، وهو بعيد ميلاده الفضي. اقترح «فادي» فكرةً فوافق عليها أبوه وتحمستْ أمه، مفادها أنه سوف يستغل جانبًا من غرفة شقتهم الأرضية المطلة على الزقاق، لإصلاح التلفونات المحمولة. ويجعل من الشباك المنخفض، منفذًا للتعامل مع زبائنه. كان فادي قد يئس تمامًا من حصوله على وظيفةٍ مناسبة أو غير مناسبة بشهادته الجامعية، فاستغل هوايته ومعرفته بأمور التلفونات وعمل مناوبًا في دكان لإصلاحها وبيع قطع غيارها غير الأصلية. وقد مهر في عمله فجرى بين أصابعه بعض المال، فصار يصبو إلى الاستقلال وممارسة نشاطه من منزله، عبر الشباك المنخفض.

في اليوم التالي عزل «فادي» جانب الغرفة الذي فيه الشباك،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بفاصل خشبي فيه أرفف عليها قطع الغيار ولوازم الموبايلات المسماة (إكسسوارات) واخترع طاولة بوضع قرصٍ خشبيٍّ ذي قوائم، على قاعدة الشباك. يضعه وقت اللزوم ويطويه عند انتهاء يوم العمل. وبالغ في الأمر فكتب لافتةً علقها بأعلى الشباك، فيها اسم المحل ونشاطه: جنة الموبايل، بيع وشراء واستبدال وتصليح.

وإن هي إلا أيامٌ معدودات، وعرف الجيرانُ وجيرةُ الجيران طريقهم إلى (دكانة فادي) خصوصًا أنه كان يعامل زبائنه بلطف، ولا يُغالي في أجرته أو مكسبه من قِطع الغيار. ومع مرور الوقت وازدهار هذه (الشغلانة) صار شباب الجيران يتحلقون حول شباك «فادي» فرادى وجماعات، وهو جالس على الجانب الآخر يمارس عمله مثل أميرٍ فقيرٍ يتربع على عرش الهوامش. وبطبيعة الحال، كان كثير ممن يتجمعون حول الشباك من شباب (الدليفري) الذين يتجافون عما تطبخه الأمهات في البيوت، ويفضلون الوجبات الجاهزة المترعة بالتوابل والإضافات الحارة ولاذعات المذاق. وقد أهاج اجتماعهم هناك وتضاحكهم الدائم، حفيظة «البردقوشي» فكان أول الأمر يرميهم بنظراته الحادة حين يعبر بهم، ثم صار يغمغم غاضبًا بتلك الغمغمات المسماة (برطمة) فيبتسم الواقفون ولا يُعلِّقون. ثم بلغ به الغيظُ مداه فكان يقف قبالتهم متوكئًا على عصاه، وزاعقًا فيهم بما معناه أنهم شبابٌ فاشلٌ لا شغل له، ولا مذاكرة، ولا همّ إلا ملاحقة أدبار العابرات بعيونهم الشبقة. وهدد بأنه لن يسكت على شيوع هذه المعاصي العلنية. وهنا حاول «فادي» استرضاءه بالكلم الطيب،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ولكن هيهات، فانتهى الأمر بعد تدخل جارنا المهندس «سامي» الذي كان يمر بالصدفة بهم، إلى حلٍّ وسط يُرضي الطرفين. هو أن الوقوف أمام المحل ممنوعٌ طيلة النهار وأول الليل، ومسموح به على هونٍ في أواخر الليلات بعد هجوع الجميع.. هجوع! معروفٌ أن الهدوء لا يعرف طريقه إلى الزقاق والحارتين إلا قبيل الفجر، أحيانًا.

ثم بدأت الأحداثُ تتسارع ويتفاقم الأمرُ، بعد الليلة التي أتى فيها صبي توصيل (الدليفري) مع الطلبات بتلفونٍ محمولٍ مقفولٍ برقم سري، قال إنه عثر عليه عند حافة الضفة الراقية من الميدان، حيث حدود الحي الآخر الفاخر الذي يسكنه المرتاحون. طلب الصبي من «فادي» فتح التلفون وفك شفرته، أو شراءه وتفكيكه لاستعمال أجزائه كقطع غيار.

تردد «فادي» قليلًا، ثم استجاب لإلحاح الصبي واشترى منه (الموبايل) بثمنٍ بخسٍ أسعد الصبي.. وفي تلك الليلة الصيفية، أطال المتحلقون حول «فادي» السهر وتسامروا بأحاديث متفرقة، كان منها بالإضافة إلى المتكرِّر من حكايات المحبين والمعتاد من سِيَرِ البنات، أحلام كل واحد منهم. وقد كانت كلها أحلامًا متواضعةً فقيرة الخيال. وقال «فادي» ليلتها للحاضرين، إنه يحلم بإقامة جدارٍ عازلٍ في وسط هذه الغرفة، فتصير شقتهم ذات الغرفتين ذات ثلاث. فيمكنه الزواج في الغرفة الثالثة، وممارسة عمله الموبايلي في الجزء المقتطع من الغرفة، وفتح شباكه ليكون بابًا.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الولد «ميدو» ابن الست «فتحية الشراشيبي» الأرملة معظم فترات عمرها، معروفٌ بحماسته وغلو انفعاله وميله للفُتيا في كل الأمور. وقد راقت له فكرة «فادي» فأكد أنها عبقرية، ولا بد من الشروع الفوري في تنفيذها. وعَرَضَ تطوعه للعمل والمعاونة في بناء الجدار العازل وفي الحصول على الطوب المطلوب والأسمنت، بسعر منخفض، من أقاربه الذين يعملون في توريد لوازم البناء. وأردف بفتوى مهمة هي ضرورة أن يحفر «فادي» للجدار عمقًا لا يقل عن متر، حتى يقوم الجدار قويًّا ويسند الحائطين الواصل إليهما.. وافترق الجمع وهم سعداء ومتحمِّسون كعادة الشباب عندما يجدون ما يشغلهم.

في اليوم التالي ظل شباك «فادي» مغلقًا، نهارًا وليلًا، فلم يهتم أحد. فلما تكرر الأمر أيامًا وجد من الجيران اهتمامًا غير جاد، وبدأ نفر منهم في الاستفسار عن سبب الإغلاق، وعن سرِّ اختفاء «فادي» أو استتاره! فهو ما عاد يظهر نهارًا ويعود ليلًا متأخرًا، فيمرق إلى بيته دون تسكّع كبقية الشباب الطبيعيين.. قال «البردقوشي» لبعض الجيران، إن الله استجاب لدعائه بغلق هذه: البَنِّيكة! هو يسمي الدكانة بهذه التسمية. وقال «ميدو» إنه كان صاحب الفكرة، لكن «فادي» نفذها وحده، حتى لا يترك لأحد غيره حق التفاخر بالفكرة العبقرية. «نوسة» بنت جارنا حمدي الفلاح، قالت إنها واثقةٌ من أن «فادي» يعيش بالشقة وحده منذ فترة، وأن أباه وأمه ما عادا موجودين. وهذا أمرٌ غريب، ومريب.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

كثرت أقاويل الجيران وتشعَّبت حتى تداخلت وتراكمت وتكاملت، ولم يعد معروفًا مَن هو الشخص الذي كَشَفَ السر، وفَضَحَ أصل الحكاية التي باتت معروفة للجميع.. وموجزها، تلافيًا لاختلاف الروايات في بعض التفاصيل، أن «فادي» حين بدأ الحفر في الغرفة للوصول إلى العمق المطلوب، وجد فجأة (جرة قديمة) من تلك التي يسميها العوام من الناس زلعة. لمحظتها وبعدما خفق قلبه خوفًا وأملًا، انتفض فرحًا حين كسر (الزلعة) فانتثرت عملات ذهبية تعود إلى عدة عهود قديمة. قال «البردقوشي» إنها من زمن احتلال الهكسوس للبلاد بقيادة الملك الهكسوسي «عليوة». ثم عاد بعد أيام وأضاف أن فيها أيضًا عملات تعود إلى زمن الاحتلال الفارسي للبلاد، بقيادة الشاه «لذيذ بن قمبيز» وهناك عملات أخرى من أزمنة أقدم.

وقال «حمدي السباك» إنه كان يسمع صوت الحفر في جوف الليل، مع أن «فادي» كان حريصًا على عدم إحداث ضجة، لكنه واثق من أنه سمع في ليلة صوت تحطيم جرارٍ كثيرة، لا جرَّةٍ واحدة. وهذا منطقي، لأن الفراعين كانوا يضعون الجِرار متجاورة في سرداب.. وقالت سعاد بنت الحاج مدبولي، إنها منذ فترة تلمح «فادي» يخرج دومًا في البواكير، ومعه حقيبة جلدية منتفخة بالعملات التي يبيعها لتجار الآثار، وفي وقت متأخر يعود بالحقيبة منتفخة بالأوراق المالية. فلا بد أن الكنز كبيرٌ، وفيه عملات وفيرة العدد، وإلا لما استغرق تفريغه وبيعه هذه المدة التي تزيد عن شهر.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

البردقوشي قال إن السرداب الذي فيه جِرار العملات الذهبية، ممتد تحت بيوت الزقاق، ومليء بالآثار والتماثيل والعملات. والجشع أعمى «فادي» فجعله يزيح التراب ويتسلل في السرداب، فيحصل على ما تحت بيوتنا من كنوزٍ ونحن عنه غافلون. والمهندس سامي سخر كالمعتاد من هذا الكلام، وقال باستهانة إن تربة المنطقة طينيةٌ رخوة، إذ كان الفيضان يغمرها ويغمر الميدان المجاور والحي الراقي، وبالتالي فلا مجال لوجود أنفاق أو سراديب. وطبعًا، لم يهتم أحد بهذا الكلام المبهم عن طبيعة التربة.

* * *

الماكرون من الجيران يعني الأذكياء والعباقرة، اخترعوا طريقة يتأكدون بها من أن سرداب الآثار يمر من تحت بيوتهم، وأقنعوا سكان الشقق الأرضية بحفر مجسات دائرية بعُمق متر وعرض نصف متر، حتى إذا صارت كالآبار نخسوا جوانبها الطينية بأسياخ، عساها تصطدم بصلابة أحجار السرداب أو فخار الجرار المليئة بالعملات.. ولما انهمكوا في ذلك، يحرِّكهم الأملُ والشعورُ بقرب العثور على مدخل للكنز، تصدَّعت بعض الأساسات فحذرهم المهندس «سامي» مما يفعلون، لكنهم لم يسمعوا له. خصوصًا بعدما عرفوا من «ميدو» أن المهندس (المحترم) ينهاهم عما يفعلون، لأنه متواطئ مع «فادي» ويحصل منه على نسبة من الكنز. نظير صمته عن الحقيقة وتضليله للجيران إلى حين استنفاد الكنز، وأضافت جارتنا «بسيمة» أم «حسني الرفافيسي» أن المهندس سامي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

هو الذي دلّ «فادي» على تُجار الآثار الذين يشترون منه العملات والتماثيل الذهبية، بالعملات الأجنبية. وأكدت أن قريبتها «زكية» عرفت من قريبتها «حسنية» أن أم فادي وأباه استقرا في قريتهما البعيدة، بعد شراء فدادين كثيرة هناك بأموال «فادي» التي زعما لأهل القرية بأنها تحويشة العمر، فلم يشك في الأمر أحد. وقد صارا اليوم يملكان أكثر من مائة فدان، مزروعة بأشجار الموالح والمحاصيل الموسمية. وكل عقود الملكية يحررانها باسم «فادي» الذي يزورهما مرة كل أسبوع يوم الجمعة، للإشراف على المزرعة وبناء (الفيلّا) التي تتوسَّط الفدادين المشتراة. وبعض أقاربهم هناك يؤكدون أن «فادي» ينوي بناء هناجر كبيرة، لتكون نواة لمزرعة تسمين العجول التي ينوي عملها هناك، بعيدًا عن الأعين. وختمت كلامها بعبارة الاستسلام: ربنا يسهل له! فزعق فيها البردقوشي وفي الحاضرين: يسهل له بفلوس الناس، يسرقنا كلنا عيني عينك، ونقول ربنا يسهل له. أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

ـ طيب نعمل إيه يا شيخ بردقوشي؟

ـ ندافع عن حقنا وناخده، كفاية نهب، ده رزق عيالنا يا ناس.

ـ يعني نحفر تاني؟!

ـ لا، السرداب ده شكله كده حلزوني، يعني بيلف تحت الأرض زيّ التعبان، وصعب نلاقيه. إحنا ندخل شقة الولد الحرامي ونتأكد من كل حاجة بنفسنا، وناخد منه حقنا. وكلنا إيد واحدة.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ أنا موافق.

ـ وأنا..

ـ كلنا موافقين، إحنا وراك يا بردقوشي. كلنا وراك.

ـ أيوه كده، وربنا قال: من مات دون ماله فهو شهيد.

ـ وكلنا لا مؤاخذة شهداء، يلّا على بيت الحرامي.

المهندس «سامي» بسبب حظه العاثر، سمع الداعين إلى الجهاد فأسرع بالنزول من بيته لتهدئة الجموع الثائرة، لكنه ما كاد يقول عبارة: يا جماعة بلاش عنف وجنان.. حتى وثب إليه ثلاثة ثائرين وأوسعوه ضربًا، فانضم إليهم كثيرون وهم يتصايحون بعبارات زاعقة من مثل: شريك الحرامي، ضحكت علينا يا كلب، فاضل من الكنز كتير؟ اعترف يا كافر. كفاية كدب، كل حاجة اتكشفت.

انطلقت الجموعُ إلى شقة «فادي» الذي كان يغطّ في نوم عميق، فلما كسروا عليه الباب وهم يتدافعون خاف وأمسك بقضيب معدني للدفاع عن نفسه، لكنهم سلبوه منه وضربوه به ليعترف. لم يعترف. احتشد حوله الجيران ومعارفهم وكل من حضر، وراح بعضهم يفتش في أنحاء الشقة عن أثر الكنز، وبعضهم الآخر أخذ يدق على بلاطات الأرضية لعله يسمع صدى، وبعضهم خلع بعضها ودق بالمطرقة ونخس الأرض الرخوة بالأسياخ عساه يجد فتحة السرداب. ساد الهرج. انتبه المهووسون بالكنز حين سمعوا

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

طقطقةَ شديدة تُنذر بسقوط البيت، فصرخت امرأةٌ وتدافع الجميع، فسقط بعضهم ودهسته الأقدام المندفعة. اجتمع الجيرانُ عند مدخل الزقاق، والعابرون بالميدان، والساكنون بالأزقة الموازية. وبدا الحال كأنه يوم الحشر. ومتأخرًا كالمعتاد، وصلت الشرطة والإسعاف.

* * *

بحسب تقرير المستشفى الحكومى: أصيب عشرةٌ بكسور في العظام والضلوع، وتلقوا العلاج. كما أصيب أكثر من عشرة باختناقٍ مؤقتٍ، وأربعة بسحجات من الدرجة الثانية. المهندس سامي خليل تادرس، أصيب بارتجاج في المخ جعله يفقد القدرة على الحركة والكلام، وليس هناك أمل في شفائه خلال المدى المنظور. وأصيب «فادي» بكسر في الترقوة، وجروح قطعية متفرقة، ويحتاج علاجًا لمدة تزيد على واحد وعشرين يومًا.

وبحسب تقرير النيابة: بعد الفحص والمعاينة، لا توجد هناك آثار من أي نوع تحت البيت، أو عمليات حفرٍ وتنقيب. وقد تم التأكد من صحة أقوال المدعو «فادي» الذي أفاد في التحقيقات بأن أباه البالغ من العمر سبعةً وسبعين عامًا، عاد إلى قريته لينتظر الموت ويُدفن هناك، وصحبته زوجته لتكون قريبة من أهلها. وهما يعيشان حاليًّا في بيتٍ ريفي فقير، بالقرية المذكورة. كما أفاد المجني عليه المدعو «فادي» بأنه كان قد عثر على تلفونٍ محمول، مفقودٍ من صاحب شركة «النور

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

المستور» متعددة الأنشطة، وعندما أعاد التلفون لصاحبه كوفئ على ذلك بوظيفة مشرف عمال. وكان خلال الأشهر الأخيرة منتظمًا في موقع عمله بضاحية «أضواء الأضاحي» الواقعة على مسافة بعيدة من بيته.

وأُغلق المحضر في ساعته وتاريخه، دون توجيه اتهام لأي طرف، وقُيدت وقائع الضربُ والدهس والاعتداء ضد مجهول.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ خواطر غروبية ◊

لم أعرف الأهمية الكبيرة لشرفة شقتي، ولم أرتبط بها وأرابط فيها معظم الوقت، إلا في السنوات الأخيرة. أعني بعد إحالتي القسرية إلى الخمود المسمى رسميًا (المعاش) ثم الوفاة المفاجئة لزوجتي التي نامت مساءً، ولم تستفق صباحًا. نعم، بهذه البساطة غير المتوقعة رحلت عني «رئيفة» رفيقة العشرين سنة الممتدة من ترقيتي إلى درجة «أمين سجلات» وزيادة مرتبي جنيهات جرأتني على الزواج في سن الأربعين، إلى إزاحتي عن وظيفتي كرئيس لقسم الأرشيف فور بلوغي الستين. حزنتُ وحزنتْ «رئيفة» وبعد ثلاثة أشهر من مكوثي الدائم معها في البيت، ماتت، مع أنني كنت آنذاك قد بدأت أراها بشكل مختلف وأعيد اكتشافها من جديد. أو كانت هي قد بدأت في الظهور لي بشكلٍ مغاير، أملًا في إبقاء شمعة الحياة مشتعلةً وباعثةً على الدفء في بيتٍ لم ينعم ببهجة الأطفال ومتاعبهم.. في بداية زواجنا وبعد اجتهادٍ لاكتشاف السبب، وتحاليل سخيفة، أكد الطبيب أنني في عافية لكنها غير كافية للإنجاب. وشرح لي ولها أن القدرة البدنية الجيدة لا تعني

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بالضرورة القدرة الجيدة، على الإخصاب. يومها نظرت لي «رئيفة» باستغرابٍ، فسألت الطبيب مستغربًا كلامه، فقال: يعني صحتك كويسة، بس الحيوانات المنوية عندك ضعيفة جدًّا وفي حكم الميتة.

في طريق عودتنا للبيت، سالتْ مني دموعُ الحسرة على الحيِّ الذي يبثُّ الموت في الحَيَا، وحين أرحتُ على المخدة خدي أجهشتُ. تدفقتْ مِن عيني ليلتها دموعٌ وفيرة. هي لم تَبْكِ، ولم تُشِرْ إلى مأساتنا من بعد ذلك قط، وتهامستْ مع القريبات بأشياء حتى اشتهر عند الأقارب والمعارف والجيران، أنها عاقر.. رَأَفتْ بي، واحتملت نظرات الإشفاق وفلتات اللسان الجارحة والعواطف الباردة المعلبة، تسعة عشر عامًا. لكنها لم تحتمل لمدة شهرين، ألم بقائي في البيت طيلة الوقت بلا عمل، إلا الرثاء لذاتي بمناسبة بلوغي من العمر السنة الستين، وماتت وهي في الخمسين من عمرها. غمرني وقتها ما يشبه اليقين في أنني سألحق بها بعد أيام، أو على الأقصى بعد أسابيع، ولكن مرت سبعُ سنوات عليَّ وحيدًا وصامدًا إلى حين أمام الموت. أمام المآل الحتمي. كل ليلة أُسلم نفسي إلى الفراش مستسلمًا لهاجس الفناء، وراضيًا، فأصحو فجرًا مندهشًا من بعثي ومن ضرورة أن أبقى حيًّا، لفسحةٍ أخرى من الوقت، ليس لها عندي مقدارٌ معلوم.

اعتدتُ الجلوس في شرفتي فجرًا، وصباحًا، وضحى. وبعد القيلولة، أعود للجلوس بموضعي لأرى العالم عصرًا وغروبًا ومساءً يطول إلى ما بعد منتصف الليل.. في بداية اعتصامي بالشرفة،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

اكتشفتُ أنها موقع متميز لاستكشاف كل ما يصطخب في الزقاق والحارتين المتفرعتين منه، في وادينا ودلتاه. لأنها في الطابق الأول من «بيت فرعون» الذي تتفرع بعده الحارتان، وهي قريبة من الشارع وأقل علوًّا منه، لأنه رُصف بعد بناء البيت بزمنٍ ارتفع فيه مستواه عن مدخل البيت بأربع درجات، هي العتبات النازلة إلى مدخل البيت، والصاعدة منه إلى أرض الزقاق. ومع هذا القُرب، والقضبان الحديدية الكاشفة، الشرفة صارتْ مرصدًا يتصل بالمرصود بحكم الدنو، وينفصل عنه بالعزلة وبالتزام الصمت وبالسكون في الجلسة مساءً وصباحًا. أنا المتصلُ المنفصل. واكتشفتُ مع دوام جلوسي بشرفتي، معنى الأنس بالناس مع عدم التماس معهم، وفهمتُ ما كنت قديمًا أسمعه من أبي حين يكرِّر قوله: الناس بالناس، والجنة من غير ناس ما تنداس.

في الجنة أناسٌ مشغولون بما هم فيه، عن الاختلاط والتداخل فيما بينهم. والبراحُ الممتد بينهم، يحول دون نشوب الخلافات. معظم الجيران سيدخلون الجنة، فيما أظن، لأنه لا يُعقل أن يعانوا في الدنيا وفي الآخرة. أو هم على أقل تقدير، لن يحترقوا بنار الجحيم الأخروي، بعد معاناة هذا التعذيب الدنيوي اليومي. أظن ذلك لكنني غير متأكد منه. لست متأكدًا من أي شيء، ابتداءً من بقائي حيًّا ليوم غد، ومرورًا بدلالة الوخزات التي أحسُّ بها أحيانًا في صدري وركبتي. قد تكون فواتح الذبحة التي سوف تنتزعني فجأة من هذا الضجيج، وقد تكون نتاج لفحة هواء بارد مر عرضًا ببدن رجل وحيد، بلغ من العمر السابعة والستين.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

اللطفاءُ من الجيران يجاملونني حين نلتقي في المرتين اللتين أخرج فيهما كل أسبوع، لشراء مستلزمات بقائي المؤقت، ويكذبون بعبارات من مثل: ما شاء الله عليك يا عم الحاج، ربنا يديك الصحة وطولة العمر يا عم عبد المجيد.. والحذَّاقُ من كبارهم سنًّا والمتحاذقون يقولون مبالغين، ما يدل على دوام المودة لأعوام طوال: اللهم لا حسد، شكلك رجعت شباب يا جودة، اللي يشوفك يديك خمسين سنة بالكتير، إحنا لازم نلاقي لك عروسة! وبعضهم يقترح عليَّ من بين الجارات، أسماءً لنسوةٍ داس عليهن الزمان، ومازلن صالحات للزواج برجلٍ آلت شمسُ حياته إلى خط الزوال الغروبي.

الجيرانُ المتكدِّسون في بيوت الزقاق والحارتين طيبون أحيانًا وأحيانًا خبثاء، لكن أحيان الطيبة هي الأغلب. وهم يبتهجون ظاهرًا ويُظهرون علامات الرضا، ماداموا متسالمين، فإذا تنازعوا انقلب اللطف عنفًا والتسامح بؤسًا وبأسًا شديدًا. ولأنهم ضعفاء فهم يكذبون دومًا، بل ويحبون أن يكذب عليهم الآخرون. وتلافيًا لألم الصدق، يكذبون في تعريف الكذب ويسمونه بأسماء أرق: المجاملة، الواجب، جبر الخاطر، الخال الطيب.. وهذا أمرٌ في العموم مريح.

هم يقولون فيما بينهم: (الصدق ينجي)، وأقول فيما بين نفسي ونفسي: والكذب يريح! المرحومة «رئيفة» كذبت منذ ستة وعشرين عامًا، وحافظت على كذبتها حتى ماتت، فأراحتني بذلك من شفقة الآخرين، ومن مصمصة الشفاه تحسُّرًا على حال رجل مسكينٍ لا

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ينجب. وأراحتْ نفسها من طنين أهلها إذا ما كانوا قد أدركوا حقيقة الحال، فسال لسانهم بالمقترحات المؤرقات مستحيلات التنفيذ: ياختي انتِ ظالمة نفسك معاه، اطلبي الطلاق وربنا يبعت لك راجل غيره يفرّحك بعيل، إنتِ لسه في عزك وكل حبة ولها مكيال.

كانت «رئيفة» تدرك أنها ليست من جملة الجميلات، وأنها عاطلة عن العزوة والمال وبقية الأشياء التي تثمن النساء وترفع رأسهن أمام استعلاء الأزواج. تزوجتها بعد شهورٍ قليلة من عبورها سن الثلاثين، وارتاحت معي، فأرادتْ بهذه الكذبة البيضاء أو بالأحرى الرمادية، أن يدوم ارتياحها ويندفع عنها قلق التقلق واضطراب البدء من جديد. لو كانت أيامها طالبتني بالطلاق لوافقتُ آسفًا، لكنها كانت ستعاني مرارات المطلقات وحسرات المنتظرات لزيجة أخرى ربما لا تأتي أبدًا. هي ارتاحت معي، وقد تكون قد أحبّتني ولم تصرّح لي بذلك لأنها خجول، وصامتة دومًا. كانت تخبرني باحتياجات البيت، ولا تلومني إذا تأخرتُ في إحضارها وإذا تأخرتُ في جلسة المقهى وإذا تزيَّدتُ في طلب حقوقي الفراشية.. وهكذا عاشت بالكذب مرتاحةً لعشرين سنة، وفي سلام، حتى رحلتْ عن شُحِّ دنياها في سلامٍ أيضًا، وصارت ترابًا.

أتراها الآن في الجنة، تنتظرني؟ أظنُّ ذلك، لكنني لست متأكدًا منه. هي بالقطع لم تذهب إلى النار، فهي فيما رأيتُ منها لم ترتكب ما يقودها إلى بؤس المصير. وهي فيما أعلم، لم تضحك يومًا بصوت عالٍ. ولم ترقص قط، ولم تحلم يومًا بموبقات، ولم ترفع

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

صوتها أمامي إلا يوم لسعتْ أصابعها نيران الفرن ويوم التهبتْ زائدتها الدودية. وقد كانت في العموم مطيعة، والزوجة المطيعة تدخل الجنة غالبًا. فمن المعروف أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وتحت أيدي الأزواج، وهي لم تنجب ولم تعرف أمها، فقد نشأتْ في رعاية عمها يتيمة الأم تعيسة الأب، فليس لها إلا الطريق الآخر: إذا صامت المرأة وصلَّت وأطاعت زوجها دخلت الجنة.. وما دامت الجنة تحت أقدام الأمهات وأيدي الأزواج، فسوف أوصي بدخولها الجنة. عمومًا، الأمر بيد الله لا بيدي. وأنا سأمثل قريبًا بين يدي الله، وليس بيدي ما يدخلني الجنة أو يلقيني في النار. فأنا لم أعصِ أمر الله علانيةً، وكل الهنَّات البسيطة التي مررتُ بها، أو مرّت بي، كانت في الخيال. والله يعفو عن كثير. نعم كنت أشتهي «روح» زوجة جاري، لكنني لم أُظهر ذلك. وكنتُ أتمنى موت رئيس القسم لأتولى مكانه، لكنه استكمل مدته حتى بلوغ سن المعاش، فلم أتمتع برئاسة القسم إلا ثلاثة أعوام. ولم أجد خلالها البهجة التي حلمت بها. وكنت أثناء نومي أحلم أحيانًا باليافعات الناهدات من الجارات وصغيرات الموظفات، فأحتلمُ وأنزوي. لكن الأحلام تأتي بلا اختيار، ولا عقوبة إلا على المختار.. لست مستحقًّا للنار، ولا مؤهلًا للجنة! فلم أرتكب ما يقودني إلى هذه، ولم أكتسب ما ثوابه تلك. أين سأذهب بعد موتي؟

* * *

صحوت فجر اليوم متأخرًا عن موعدي المعتاد بساعة، مع أنني

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

نمتُ بالأمس قبل موعدي بقليل. على كل حالٍ، لا فرق بين الصحو والنوم، وما عادت تأتيني الأحلام التي كنتُ سابقًا أستحضرها حين يئويني السرير.. بردُ الليل منعني أمس من السهر، وبردُ الفجر يعوقني الآن عن الجلوس في الشرفة. بالصالة راودني خاطر العودة إلى السرير، فدفعه خاطر البقاء ساعة لأنعم برحيق الصباح.

ببطء، أعددتُ كوب الشاي ومزجته ببعض الحليب، وعدتُ أحمله بحرصٍ لأحتسيه على مهل في ظلام الصالة. وببطء، في السابعة إلا الربع فتحتُ باب الشقة. وجلستُ على الكرسي القريب منتظرًا نزول البنت «يسرة» إلى مدرستها الثانوية، وكالمعتاد، دبَّ في بدني الدفءُ حين سمعتُ دبيب حذائها المدرسي على الدرج الهابط، فتهيأتُ لأخذ الحوارات اليومية الممتعة.. وقد كان:

ـ صباح الخير يا عم جودة، شكلك لسه صاحي من النوم.

ـ لأ يا عروستنا الحلوة، صاحي من ساعة. بس الدنيا برد، وشكلي كده هارجع أنام تاني.

ـ يا بختك. أنا صاحية بالعافية النهارده، واللهِ المدرسة دي حاجة مزعجة جدًّا، مفروض تبقى متأخرة شوية علشان نعرف ننام كويس.

ـ ولا يهمك يا يسرة، أول ما تخرجي للشارع النوم هيروح وتلاقي نفسك نشيطة.

ـ طيب يا عمو، إنت موش عاوز حاجة؟

ـ عاوز سلامتك.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

البنت لم تكد تبلغ السابعة عشرة من عمرها، لكنها استكملت كل شروط الأنوثة. سبحان الله.. لو كنتُ في مثل عمرها لمشيتُ خلفها حتى بلوغها المدرسة، وانتظرتها قبيل انتهاء اليوم الدراسي لأنعم برؤيتها مرتين. وربما كنت قد تجرأت وخططتُ لها رسالةً مطولة أبثُّ فيها تباريح الهوى. ما عادوا اليوم يكتبون رسائل للحبيبات، وعندما كانوا يفعلون ذلك في زماني، خفت من الإقدام على خطوةٍ كهذه، كنتُ أراها آنذاك خطيرة. ليتني أيامها خاطرتُ. لو عاد بي الزمانُ فجأة، لعارضتُ أبي عندما أصرَّ على إلحاقي بالثانوية التجارية، لأتخرج بسرعة وأساعده على صعوبات الحياة. ولكنتُ قد اجتهدتُ حتى ألتحق بالجامعة، فأصير شابًّا لامعًا يُعجب الفتيات ويخطُّ رسائل الالتياع والاشتياق إلى كثيرات، فيكون لي حبيبات مبهجات الطلة مثل «يسرة».. آه.. وكنت قد غامرتُ بطلب يدها، واحْتَلتُ حتى احتويتُ قلبها ورضا والديها فتزوجتها وهي في هذا العمر المشرق، وطلبت منها كل ليلة أن ترقص لي. لا بد أن رقصها بديع. وكنتُ قد تعطَّرت لها وجلبت لها العطور، فيصير سريرنا فواحًا بعطورنا ودافئًا وشهيًّا.. يووه، هذه الأمنيات مرهقة! سأقوم لأغلق هذا الباب المفتوح بلا طائل، وأعود للنوم الرحيم هربًا من وقت يمرُّ بلا جدوى.

ساعة الضحى صحوتُ من النوم، فأعدتُ ما أعددتُ فجرًا من شاي ممزوج بالحليب. هذا المشروبُ مائعٌ ولا خصوصية لمذاقه، فلا هو شاي ولا هو حليب! أنا شايٌ بحليب، ولا مذاق لي.. لو سارت حياتي التي لن تعود حسبما كنتُ أريد، لتخرَّجت في جامعةٍ إلى وظيفةٍ

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

مرموقة ذات راتبٍ وفيرٍ كافٍ لزواجي في سن مبكرة، من بكرٍ لعوبٍ لا تخجل عند النوم من عريها، أو ترتدي أخفَّ الثياب مثلما تفعل الممثلات الشهيات في أفلام السينما. وكنتُ طبعًا سأنجب أطفالًا، وأشتري في منتصف عمري سيارة وأدهن شقتي الباهتة هذه كل عامٍ بألوان أنصع. لا، كنتُ سأنتقل للعيش في شقةٍ أخرى أرحب، ليمرح فيها أطفالي في النهار وأتهنَّى في غرفة النوم ليلًا مع زوجتي. لا، كنتُ سأتزوج مرة أخرى عند بلوغي الأربعين، وأترك لزوجتي الأولى مهمة تنشئة الأطفال، وأعوّضها عني بمصروف شهري يرضيها. لا، كنتُ سأحتفظ بزوجتي الأولى في هذه الشقة، وأستأجر أخرى للزوجة الأخرى، فأنعم بالتقلُّب بين الاثنتين وأستمتع بالجمع بين دفء الحضنين. يوم هنا، ويوم هناك. الحضنُ وما قبله مهم، وما بعده أهم، وأنا لم أعرف مع «رئيفة» هذا القَبْل ولا ذاك البعد، فهي لم تقم يومًا باحتضاني. والمراتُ الأولى التي احتضنتها في بداية زواجنا، استسلمتْ لي كفريسةٍ مرهقة وخنعتْ طائعةً فزهدت فيها.. مسكينة، كان يقيد كل خطاها الخجلُ.

ولو كانت لي زوجتان، لاستمتعتُ كل ليلةٍ بما يكون بينهما من تنافسٍ لإرضائي، ولكنت قد عملتُ بحسب الشرع الداعي إلى العدل بين الزوجات، فكنت أداعبُ هذه بطريقة وأداعبُ الأخرى بطريقة أخرى. وكنت سآخذ هذه إلى رحلةٍ خلويةٍ مرة، وفي المرة التالية أصحب الأخرى لرحلةٍ أخرى، وأهدي إليهما قبل الرحلات الأثواب المثيرة المناسبة لما قبل النوم، أعني تلك التي تُذهب النوم من عين الزوج. فما الفائدة من النوم! وكنت سأسهر معهما كل ليلةٍ،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أو في معظم الليلات، وأرتاح أحيانًا حتى لا يصيبني منهما الملل..
يا سلام..

* * *

ضوءُ الظهيرة ساطعٌ من خلف نافذة الصالة، لا بأس الآن لو خرجتُ إلى جلستي المعتادة بالشرفة، فالطقسُ لم يعد باردًا مثلما كان. لن أطيل الجلوس، يكفيني البقاء ساعتين حتى تعود «يسرة» من مدرستها وترفع نحوي ابتسامة الظهيرة، وأبقى بعد ذلك ساعتين أو ثلاثا لأشهد احتشاد الزقاق والحارتين بالسكان ساعة العصر، وإن جاء المساء محتملَ البرودة فسوف أبقى جالسًا مستأنسًا من بعيدٍ بالعابرين. حتى يدق البردُ أبواب عظامي، فأحتمي بجدران الصالة أو أتمترسُ تحت لحاف السرير، وأستريحُ بالنوم من نومي..

غدًا سيكون يومًا مشهودًا، فسوف أخرج صباحًا إذا صحوتُ لشراء ما سوف أحتاجه لأبقى حيًّا ثلاثة أيامٍ أخرى: عشرةُ أرغفة وكيسٌ كبيرٌ فيه فول مدمس، وعلبةٌ من عجين الفلافل، وقطعةٌ من الجبن القريش وأخرى براميلي، وعشرُ بيضات، ولتر حليب. ولا بأس ببعض الخضراوات خفيفة الوزن، والطماطم والخيار. هذه لوازمُ حياتي الخاوية الآن، حياتي التي كانت من يومها خاوية، وستبقى ما دمتُ حيًّا.

هل أنا حقًّا، حيّ!

◊

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ خلود شيخ الحارة ◊

بعد هدأةٍ عامةٍ شملت الأنحاء واستطالت زمنًا حتى بدأ الناس يشعرون بنوع من الملل، عادت عجلة الحياة للدوران بل واشتدَّ دورانها بسرعة قصوى تُنَذر بوقوع أهوال الأحوال في الزقاق والحارتين.. وكالمعتاد، ابتدأت الأمور بوتيرةٍ هادئةٍ، حينما تسرَّبت في السر والعلن أنباءٌ متضاربة وتهامساتٌ متناقضة، عن الحالة الصحية والعقلية لشيخ الحارة «محسني طنطاوي» الذي يناديه المسنونُ من الجيران باسم «أبو خلود». مع أنه لم ينجب بنتًا بهذا الاسم! ربما كانوا ينادونه بذلك لتأبده في منصبه حتى بلغ من العمر عتيًّا، وحتى اعتاد الناس وجوده. فصار في وهمهم كالهواء، غير محسوس، ولا غنى عنه. وقد كثرت مؤخرًا الأقاويل المتناقضة. قيل إن الرجل لم يزل في عنفوانه فتيًّا، وقيل بل لحق به من الأدواء ما لا دواء له، وقيل إنه متماسك بدنيًّا. لكن خرف الشيخوخة خامره، فلم يعد يعلم من بعد علم شيئًا، وقيل إن كل ما قيل محض مبالغات، فقد مرَّ الرجلُ بوعكةٍ عابرة ثم تعافى منها، وما تتناقله الألسنة هو هَرَف وبُهتان وأكاذيب.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وقبل سبعة أيام، ترددت شائعات ممزوجة بتكذيبات وتأكيدات، تفيد بأن شيخ الحارة مات إكلينيكيًّا ولكن لم يتم إعلان وفاته، مراعاةً لما نحن فيه من ضبابيةٍ بالغة الإعتام وهوسٍ يجتاح الجيران الميَّالين بطبعهم إلى السكينة والمسكنة والركون إلى ما يسمونه مَنَاخ الاستقرار ومُنَاخ الطمأنينة.. ومن المعروف أن وفاة شيخ الحارة سوف تبدد شعورنا بالأمان، وتؤجج الصراع بين الطامحين لاحتلال منصبه الذي دام له قرابة ثلاثين سنة. الدوام لله. ومن المعروف أن «منجي النواح» و«توفيق أبو دقيق» هما أقوى المرشحين لخلافة شيخ الحارة. ولكن كليهما ضعيف، ولن يقوى على القيام بمهام هذا المنصب إذا شغر، وليس لديهما من الخبرة ما يؤهل للنجاح. مع أن شيخ الحارة كان يستعين بهما في بعض الأمور، سرًّا وعلانية.

* * *

قبل ستة أيام صدحت صرخاتٌ ملتاعة في جوف الليل، سمعها من الجيران المؤرقون، وقبيل الفجر انبلجت شمس الحقيقة مكسوفة، وأُعلنت وفاة شيخ الحارة. فجأة. وأكد جماعة من الجيران أنه دُفن ليلًا على عجل بالجَبَّانة الكبرى، وتلقى جميعُ المشيعين عزاء جميع المشيعين فور الدفن، فوق القبر. وقرروا الاكتفاء بذلك وعدم إقامة أي مراسم أخرى للتعزية، تحاشيًا لما يمكن أن يُحدثه ذلك من اضطراب عارم، أو تشجيع للأشرار وللمتربصين المتحفزين للعبث بمصائر وسواكن الساكنين بالزقاق والحارتين.. استر يا ستَّار.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وبطبيعة الحال، ونظرًا لهول الصدمة المتوقعة. فقد استغرق الجميعُ جميعَ ساعات النهار مذهولين صامتين، كأن على رءوسهم الطير التي قيل قديمًا إنها كانت تحوم فوق رأس الميت، قبل أن تنقض عليه وتنزع منه روحه. كلام عجيب. وفي المساء استفاق الناس جماعة تلو أخرى وتباينت ردود أفعالهم على وفاة الفقيد، فبعضهم راح يبحث عن ابن المتوفى «زغلول» ليعزيه حسبما تقول أصول أولاد الأصول، لكن أحدًا لم يجده ولم يعرف أحد أين اختفى. وبعضهم قدح في صحة خبر الوفاة واعتبره من جملة الشائعات، واستدل هؤلاء على قولهم بأن شيخ الحارة لم يبلغ بعد من عمره التسعين سنة، ولا يُعقل أن يموت مثله ناقص عمر! وبعضهم أقعده الحزن، فاكتفى بالنحيب والنشيج والنهنهة التي تمزق نياط القلب أسفًا وحسرة.

وكان كل قوم بما لديهم مقتنعين.

* * *

قبل خمسة أيام كان اليوم جمعة، وكان خبر الوفاة قد صح بالتقادم مثلما تصح عند الجيران، معظم الأمور. وطيلة اليوم، انبعثت من الشرفات والشبابيك ومداخل البيوت ترانيم (العديد) التي تداخلت وتعالت ناعيةً ومعدِّدةً مناقب الفقيد، موصوفًا بالشهيد. وعند دخول ظلال المساء وبدء ظهور أضواء الكهرباء الخافتة، توحَّدتِ الأصواتُ وانتظمتْ في إنشاد العدودة المعروفة التي تعود إلى زمن ما قبل حكم الأسرات، وراحت تنسب بدموعٍ

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

منسابةٍ محاسن الفقيد الشهيد وفضائله التي لم يلمحها أحد، ومتجاهلة بطبيعة الحال ما عُرف عنه من اتساع الذمة ومد اليد والوقيعة بين الناس وفساد الطوية وطيّ الحق ونشر الباطل.. ولولا القاعدة الخالدة القائلة: (اذكروا محاسن موتاكم) لكانت الألسنة قد لهجت بما لا حصر له من ذميم خصاله وقبيح أفعاله.

وبعد صلاة العشاء شاعت أنباءٌ وتأكدت، بعدما كانت قد كُذبت في الظهيرة، مفادها أن جارنا الطيب «طلبة الطبال» وهو أحد سكان السطوح المرموقين، اعتزل زوجته والإنس والجان جميعهم، واعتكف في غرفته غير المسقوفة لتأليف لحن جنائزي لهذه المناسبة الجليلة. وقيل إنه سوف يستوحي اللحن من قصيدة شاعر الزقاق «ميدو ملاهي» التي ألفها في مدح شيخ الحارة المرحوم حين أنهى له الأوراق المطلوبة لتأجيل التجنيد دون رُشى، وهي القصيدة المعروفة التي يقول مطلعها: يا حُسني، يا حُوستي.

وظل كل قوم بما لديهم قانعين.

* * *

قبل أربعة أيام بدأ احتدام الأمورُ وظهرت الشراراتُ التي اندلعت لاحقًا، ثم تفاقمت فأمست صراعًا بين الأجيال.. وجيراننا أربعة أجيال: الذين تخطوا السبعين من العمر، وهم الذين يسيطرون على مقادير الأمور ومجريات الأحداث. والذين تتراوح أعمارهم بين الأربعين والسبعين، وهؤلاء معروفون اصطلاحًا باسم الجيل الضايع. وجماعة الدليفري، المتراوحة أعمارهم بين الخامسة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

عشرة وما تحت الأربعين، وهم المعروفون اصطلاحًا بالجيل (الصايع)، لأنهم يقضون معظم وقتهم خارج بيوتهم، فإذا حضروا طلبوا طعامهم بالتلفونات. وهناك أخيرًا جيل الصغار من الصبيان والجواري من البنات، أي اللواتي مازلن يلهين في الشارع ويجرين مع أقرانهن، وهم الذين سماهم شيخ الحارة الفقيد الشهيد ذات مرة (الحناكيش)، فغلب عليهم هذا الاسم.

أهل الحل والعقد، أعني الذين تخطوا من العمر السبعين، حافظوا على هدوئهم وزعموا للجميع أنهم سوف يديرون الأمور بحكمة خلال الفترة الانتقالية، لحين انتخاب شيخ حارة جديد. وأكدوا أنهم لا يوالون أي مرشح، ويقفون من جميع المرشحين على مسافة واحدة. وليس لهم غرض، إلا الحفاظ على سلامة سكان الزقاق والحارتين.

الجيل المعروف بالضايع لم يهتم بالأمر كثيرًا لانشغاله بهمومه الأبدية الأزلية، فالرجال منهم واصلوا مآسي الكدح اليومي سعيًا للإنفاق على أبنائهم، ونساؤهم حافظن على الوتيرة ذاتها دون تعديل وبقين في حالة الانهماك المنزلي المتنوع ما بين التنظيف والطبخ والشكوى من غلاء الأسعار. لكن ذلك لا يعني أنهم كانوا معزولين تمامًا عما يجري، بل حرصوا جميعًا على المشاركة في الشأن العام بالترحم على المرحوم والدعاء له بغفران الذنوب ودخول جنة الخلد.

جيل الدليفري هو الذي تعالى صخبه رويدًا، بينما بقي جيل

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الحناكيش مشغولًا باللعب، وذاهلًا عما سوف يجري على قدم وساق.. حسبما سيأتي بيانه.

* * *

قبل ثلاثة أيام، في الصباح، امتدح أهل الحلّ والعقد جيل الدليفري في محاولة لاستيعابه وتهدئة خواطره المهتاجة، وانتشرت على بعض الشرفات لافتات تقول: الشباب هو المستقبل فليس له في الحاضر نصيب. الشباب هو شعلة الحضارة لكنها شعلة هوجاء. الشباب طاقة هائلة تحتاج للترشيد والتوجيه والإصلاح.. وغير ذلك من سواقط الأقوال الداعية إلى الحوار بين الأجيال.

المتحمسون من شباب الدليفري رفضوا الدعوة إلى الحوار، ورفعوا شعارات مضادة وغير مهذبة، كان منها قولهم الزاعق: الخناشير مناشير. شيخ الحارة خرب العمارة. لا شيخ بعد اليوم. كفاية، آه، كفاية! وسرعان ما نظم هؤلاء المندفعون مسيرات راحت تجوب الحارتين والزقاق، ولا تتوقف إلا في وسط الميدان.

في المساء نشطتِ المساوماتُ ومحاولات الاستقطاب، إذ سارع المرشحون لشغل المنصب الشاغر في استمالة مجموعات من شباب الدليفري، فاستطاع «منجي النواح» الحصول على تأييد جماعة منهم، كانَ من أهمهم: ميمو المسطول، مودي الزنان، كيمو، مُحَّه الممصوص، أحمد النسناس.. وفي المقابل حصل «توفيق أبودقيق» على تأييد جماعة أخرى لا يستهان بها، كان منها: يُسري السَّحَّاب، هبة جُوينت، مُقّه، داليا طحن، حمادة ألاعيب.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وانشق عن هذين الفريقين فريقٌ ثالث دعا إلى عدم انتخاب شيخ حارة جديد، على اعتبار أن الزمن تجاوز هذا المنصب الهلامي مع الاعتماد على الكمبيوتر، ولا يصح العودة إلى الوراء. وظهر فريق رابع رفع شعارًا من كلمة واحدة غير مفهومة، هي: أناركيه. أناركيه. وهناك فريق خامس اعتزل الأمر كلية، وانزوى عن المشهد مواصلًا سعيه السابق للحصول على عقد عمل في بلاد الخليج.

وبقي كل فريق على عقيدته لا يلين.

* * *

قبل يومين ذاعت انتقادات قاسية لجيل الدليفري، دون تمييز بين فريق منهم وآخر. وقد بدأت بخطبة منبرية في غير الموعد ردَّد فيها إمام الزاوية الأقوال المأثورة عن عجائز الحي ومشايخه المنعوتين بالخناشير، فكان من هذه المأثورات: الدليفري أصلًا حرام. طالب الدليفري كافر بالحق مناصر للبطلان وبطران، وفي النهاية خسران.

واتبع إمام الزاوية هذه المأثورات والثوابت، بشرح تفصيلي قال فيه إن هواة الدليفري معاقون عقليًّا وعاقُّون للأمهات اللواتي أرضعن في الصغر ويطبخن في الكبر. لكن الضلال المبين جعل الأبناء والبنات، المنبوذين والمنبوذات، يفضلون أكل الشوارع ولو كان الأكارع. ويكسرون خاطر الأمهات الطاهرات الطابخات، المتبتلات، المتبلات الطعام بالمقدار الواجب من التوابل والأفاويه.. واختتم الخطبة بكلامٍ عاميٍّ بعد الكلام الفصيح، فقال: يا سايب أكل أمك ورايح للفود الجنك، بكره تندم وحياتك تبقى ضنك.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الخطبة ألهبت المشاعر وهيَّجت النفوس الشابة، فاشتبك بالعراك جماعة من أنصار الإمام تناصرهم جماعة من سكان السطوح، مع حزب الدليفري المعروف اختصارًا باسم «زيرو فات» مدعومًا ببعض شباب الحزب اليساري المعروف باسم: «دايت».. وقد وقعت في العراك إصاباتٌ وُصف بعضها بأنه خطير. وفي الليل تجددت الاشتباكات، وشاعت أنباء غير مؤكدة تقول بوقوع قتلى بين أفراد (زيرو، فات) نظرًا لضعفهم، وزاد الطين بلة انقطاع التيار الكهربائي وانعدام الشموع.

* * *

أمس كان يومًا داميًا من أيام المآسي، ففي الصباح احتدت البنت المتهورة «بسملة» ابنة الحاجة «حمدلة» على جارهم سلامة السباك، واتهمته بأنه حصل على مبلغ مالي من المرشح «النواح» وكتب اسمه فجرًا على جدران البيوت متبوعًا بعبارة: منكم ولكم ولا غنى عنه! ثم حصل على مبلغ مالي آخر من منافسه «أبو دقيق» وعلق في الصباح الباكر على مدخل الزقاق لافتةً مكتوبًا عليها: عاوز السكر والدقيق، إدّي صوتك لتوفيق أبودقيق.. ولم ينكر سلامة السباك ما فعله، معللًا إياه بأنه أكل عيش، فصرخت فيه «بسملة» قائلة إنها خيانة للأمانة. واشتد بينهما الصخب حتى وقت الظهيرة ثم انقلب عصرًا إلى تشابك بالأيدي، وما لبث قرب المغرب أن صار قتالًا بالأسلحة البيضاء والملونة.

بعد المغرب ساد السكونُ عند موعد المسلسل التلفزيوني،

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ثم اجتمعت الجماعات المتناحرة مجددًا وكادت تنهمك في قتال جديد لولا أن الكهرباء انقطعت، وتزامن ذلك مع وصول الشرطة واعتقالها لكثيرين.

* * *

اليوم لم يذهب الآباء إلى عملهم ولم تطبخ الأمهات، وجميعهم متوجسٌ وينتظر ما سوف يكون. الرجالُ في الشرفات والنساء تطل من الشبابيك، ومن بينهم وبينهن ينظر (الحناكيش) بعيونهم وعيونهن المندهشة. وساعةَ ارتفع أذان الظهر، دخل الزقاق مأمورُ القسم يزهو بالقطع النحاسية اللامعة على كتفيه، وقال بصوت عالٍ: شيخ الحارة ليس بالانتخاب، أنا الذي أختاره من بين المخبرين، وقد اخترت «زغلول» شيخًا للحارة بدلًا من أبيه الذي لم يمت، وإنما ذهب ليرتاح في دار الاستشفاء. والمعتقلون بالقسم سأُفرج عنهم تباعًا، إذا تابوا وأنابوا وعادوا إلى سواء السبيل. ولن أتهاون بعد اليوم مع مثيري الشغب وهواة اللعب. وليس أمامكم من الآن إلا طريقان: طاعة زغلول، أو المصير المجهول.

في صوتٍ واحدٍ أعلن الرجال والعجائز والنسوة والباقون من الشباب والشابات واليافعين واليافعات، أنهم سيقدمون فروض الطاعة عن يد وهم صاغرون.. الحناكيش لم يعلنوا شيئًا واكتفوا بالدهشة، إلى حين.

* * *

غدًا.. قد يكون الحال كما كان اليوم، وقد لا يكون.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ مينو بوز ◊

آه ياني. ربنا يرحمك ياماما، ويسامحك. أنا محتاجة إليكِ الآن جدًّا، جدًّا! مديحة جارتي «ونيفين» بنت خالي «وعفاف» بنت الحاجة بطة، أكبر مني بسنوات ولا تعاني إحداهن ما أعانيه. «عفاف» الساكنة بالشقة المقابلة، كل يومين تأتي إليها أمها وهي تذهب كل يومين إليها، فتلتقيان يوميًّا بانتظام ولا يتوقف بينهما الكلام. وأنا من بعد سفر ابنتي «عايدة» لا أجد من أتكلم معه، وأشكو ما يمر بي. لماذا يا أمي تعجلتِ الرحيل ولم تصبري حتى تكتمل فرحتك ويتحقق حلمك الحاني، فتشهدي اللحظة التي طالما كنتِ تترقبين: مولد حفيدتك «عايدة» سميِّتك، ورؤيتها تكبر؟! كيف أحكي لغيركِ وأعترف بأنني بعد أربعة وعشرين عامًا، وجدت نفسي فجأة في هذا البيت تائهةً غريبةً عني وعمَّا يحيط بي، وعن الأفندي الذي سيأتي بعد ساعة، وفور دخوله سوف يتعجل وضع الطعام متبرمًا كالمعتاد، وشاكيًا من أنه جوعانٌ ومجهدٌ ويريد أن ينام ساعة قبل أن يعود لدكانه، الذي سيعود منه إلى فندقه الخاص هذا بعد منتصف الليل وهو يصطنع التبرُّم ويودُّ اللوم، فأصطنع النوم كيلا ألقاه؟!

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ما عدتُ قادرةً على احتماله واستماع المحفوظ والملل من كلامه: أنا جعان جدًّا وتعبان. النهارده كان يوم طويل. السوق حالته زفت. أنا داخل أنام.

محفوظات. حياتي صارت كلها محفوظات، وأمست أيامي نسخًا طبق الأصل من بعضها لبعضها. وكل بضعة أيام تُخلف الشغالة موعدها الصباحي مثلما أخلفته اليوم. وطبعًا، لا ترد على التلفون! وفي المساء تتصل لتزعم كعادتها أن أحد أطفالها أو زوجها مريض، أو أن آلام دورتها الشهرية عاقتها عن الحضور في موعدها، فأدعو لمن اعتلَّ بالشفاء فتعدني بأن تأتي في الغد مبكرة. محفوظات.

بعد أرقٍ عذَّبني الليلة الماضية حتى الفجر، صحوتُ صباحًا على وجعٍ مريعٍ في ركبتي ونَشْرٍ مؤلمٍ بعظام ذراعي وكرياتٍ صغارٍ من النار تجري في عروقي. شعرت بوجهي كأنه يريد أن ينفجر، وليته انفجر، وكانت أصابع قدمي وما تزال لا تحتمل نهوضي من سريري البارد، الطارد، السخيف.. لم أتصل بالدكتورة «نيفين» لأنني أعلم مسبقًا ما سوف تقوله من المحفوظات: عادي، دي أعراض المينوبوز، خُدي دلوقتِ أي مُسكن.

أنا على تلك الحالة منذ أشهرٍ مريرة، وربما تستمر حالتي أو تسوء، وبعد مدة غير معلومة سوف بعدها تسكن خلايا جسمي المهترئ وينتهي هذا الثوران الأهوج، فأهدأ، أو أموت فأستريح. حظي مثل حال السوق الذي يزعمه زوجي (زفت) فقد اختلت

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

خلاياي فجأة، وفي موعد أبكر من المعتاد بسنوات. أمي ماتت في التاسعة والأربعين من عمرها ودورتها الشهرية لم تزل منتظمة، وأعرف نسوة كثيرات تخطين الخمسين بعدة أعوام ولم، وربما لن يدخلن هذا النفق المظلم الذي وجدت فيه نفسي وأنا في سن الرابعة والأربعين. والعجيب أن الجميع يعتبرون الأمر عاديًّا، ولا أجد من يسمع شكواي ويشعر بمأساتي المسكوت عنها.

* * *

بدأت مأساتي المسماة عندهم الأمر العادي، في شهر مارس الماضي، بعد ثلاثة أسابيع من سفر ابنتي «عايدة» مع زوجها للعمل خارج البلاد. لماذا لا يعمل الناس داخل البلاد! ليلتها جاء زوجي في الثالثة فجرًا فوجدني جالسة على هذا الكرسي، وواجمة، فسألني عن سبب جلوسي في الظلام. لم أجد إجابة. أضاء اللمبات وهمَّ بسؤالي عن الطعام كالمعتاد، لكنه ارتاع من حُمرة وجهي فسألني عما بي. قلت لا أدري. جلس قبالتي فرأيت احمرار عينيه وكسل جفونه، وأعاد عليَّ السؤال فأعدت الإجابة. عاد برأسه للوراء حتى ارتاح على قائم الكنبة، وقال إنه مجهد فلم أرد عليه، وبعد حين نام.. نظرتُ باشمئزازٍ إلى أصابع قدميه ثم ساقيه وبطنه المتدلي، ولما علا شخيره أحسستُ بأنه ليس الرجل الذي ارتضيت الزواج به، وأقنعت نفسي أيامها بأنني أحبه. هذه الكتلة البشرية الخامدة أمامي، ليست هي المهندس الرشيق الأنيق الذي تزوجته وأنجبت منه «عماد» الذي يعمل بعيدًا عن هنا، مدربَ غطسٍ، ولا

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

يريد أن يتزوج بسبب وفرة السائحات الغاطسات. وبعده أنجبتُ حبيبة روحي «عايدة» التي تزوجت، فتغربت لتجد لقمة عيش لم يجدها زوجها هنا، فحرمني منها.. شعرت بأن النائم أمامي متهرِّئًا مثل كومة الغسيل، ليس الزوج ولا رفيق الدرب. هو عدوي اللدود وسارق عمري. وانتبهت إلى أننا في واقع الحال، عدوَّان يعيشان تحت سقفٍ واحدٍ ويتصارعان بصمت، من دون إعلان الحرب. هو لم يعد يحبني، ولا أحبني يومًا. هو من البداية كان يكرهني، ويشتهيني، ويستهين بي. مفارقة تامة. جعلني أنصرف عن استكمال دراستي الجامعية، بحجة أنها غير مُجدية. وكان دليله على ذلك أنه حصل على شهادته عبثا، ولولا ذكاؤه لما كان قد وجد الحل وفتح هذا المحل لبيع قطع الغيار وكماليات السيارات. تفنَّن في قضاء وطره مني، ولما هد أركاني الحبَلُ والأمومةُ ورعايةُ هذا البيت الكئيب، عافني وصار يتشهى الممثلات والمغنيات والمذيعات والعابرات أمام محله، وبلا خجل يجاهر بأن الزواج لا فائدة منه إلا الإنجاب. ينعي عليَّ أن وزني زاد عن المعدل، مع أن وزنه خرق كل المعدلات. هو يعتقد أن الرجل لا يعيبه شيء، إلا العجز عن تمويل نفقاتَ البيت والوفاء بما يتطلبه تزويج الذرية إذا جاء الأوان. أما النساء فهن عنده بهجة الاشتهاء ولذة الأسِرَّة ووعاء الأبناء والمرضعات الطابخات المطبوخات بنار الصبر وبشغل البيت.. ليلتها تأكدتُ أنه كان منذ البدء عدوي، لكنه لم يعلن العداوة إلا بعدما وثق من عدم قدرتي على مقاومة سلطانه وتسلطه. وفي تلك الليلة تركته يغطُّ في نعاسه التعيس، المنفر، وبقيت بموضعي أحدِّقُ

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

في بطنه الذي ترهلت استدارته، حتى استطال الوقت وتباطأت عقارب الساعة المعلقة في الصالة. ولمَّا تململ فجرًا، قام من تكومه فزعًا وهو يقول:

ـ إيه ده، أنا ازاي نمت كده!

ـ مش عارفة.

ـ يعني إيه، وليه تسيبيني نايم كده؟

ـ مش عارفة.

ـ إنتِ مالك، فيكِ إيه؟

ـ مش عارفة.

ـ هوَّ كل حاجة: مش عارفة؟

ـ..

حوقل وخبط كفيه ببعضهما البعض كأنه مظلوم، ثم قام إلى السرير ومن فوقه ناداني لأنام بجواره. فنطق شيءٌ بداخلي قائلًا له إنني سأنام بغرفة الأولاد. لم يعلق. لم أنم حتى الضحى، وحين رآني وهو يفرك وجهه المليء باللحم صباحا، صاح فيَّ: إنتِ قاعدة كده من إمبارح.. ارتعدتُ وشعرتُ برغبة في الإجهاش بالبكاء، قال: قومي اعملي الفطار.. فراودتني فكرة حارة كالحمى، تدعوني إلى الصراخ يائسةً ثم الإسراع إلى البلكونة وإلقاء نفسي من الدور الرابع، علّني بذلك أستريح.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بعد هذه النوبة الأولى المفاجئة هدأت أحوالي يومين قصيرين، ثم اجتاحني مجددًا ثوران الدم وصخبه، وتتالت النوبات متتابعةً. وفي أحد الأيام اضطرب نبضي وتعالت دقاته وتسارعتْ، حتى ظننتُ أنها ذبحة صدرية فأسرعتُ إلى المستوصف القريب. فقالوا كلامًا مبهمًا، وطلبوا قياس السكر والضغط، فجاءت النتيجة مطمئنة. لكنني لم أطمئن. في طريق عودتي للبيت وحيدةً، كنت أتلفت حولي كأنني أرى الميدان وبيوت الزقاق لأول مرة، ثم دهمتني الذكرياتُ.. حين أتيتُ إلى هنا أيام غفلتي، متوهمةً أن بيت الزوجية هو الفردوس الموعود ومنتهى الآمال، كان بداخلي قلقٌ طفيفٌ يختلف عن هذا الجارف. وفي المرتين، لم أعرف السبب إلا بعد مدة. فقد خُدعت في طفولتي بما كنت أسمعه من أدعية الطمس ودعوات الدهس ومعسول العبارات: ما شاء الله بقيتِ عروسة. البنت مسيرها الجواز. ربنا يكرمك، يسترك ويسعد أيامك! كنت إذا سمعت مثل ذلك أبتسمُ، لأنهم علموني أنه كلام يبعث على الابتسام. لم أكن أفكر في المعنى، ولم أعترض على شيء. مرة قلت وأنا في العاشرة من عمري، إنني حين أكبر لن أتزوج فانفجر الذين حولي بالضحك، وقال أبي: أنا خايف البنت دي تطلع عبيطة.. آلمني كلامه فلم أعد من يومها أعلِّق على أدعية السعد ودعوات الستر، وتوهمتُ كما أرادوا أن التي لا تتزوج هي تعيسةٌ لن تسعد، ومفضوحةٌ لم تُستر.

لم أكن أيام عذريتي جميلة ولا قبيحة. كانت «علوية» زميلتي في المدرسة تقول إن ملامحي محايدة! وقد بقيت دومًا على الحياد.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ارتضيت بمن ارتضوه لي زوجًا، وفرحت حينًا، وحزنت أحيانًا، حتى مرت السنوات عليَّ محايدةً فنسيتُ الحزن والفرح.. ولما خلا البيتُ وانفردت بزوجي من جديد، بعد ابتعاد «عماد» وسفر «عايدة» رأيت أن الدنيا تغيرت تماما، وأنه شتانٌ بين الانفرادتين. عندما أخبرت (الأفندي) بأنني ذهبت إلى المستوصف، جعل من نفسه طبيبًا وقال واثقًا إن ذلك لم يكن ضروريًّا، فكل ما في الأمر أنني حزينة لفراق ابني وابنتي. وختم تشخيصه بعبارةٍ عبيطة: يعني عادي، حالة نفسية وخلاص.. وعندما عاودتني الأعراضُ ذهب معي مضطرًّا إلى عيادة الدكتورة «نيفين» فعرفنا أنها علاماتُ انقطاعٍ مبكرٍ للطمث، وأوصته بالتعامل معي برفقٍ وأوصتني بالصبر. كان ذلك في يوم أحد، شتوي، يعني يوم إجازته الأسبوعية. وفي طريق عودتنا للبيت كان الهواء البارد يلفح وجهي كأنه فيح النار، وكان في رأسي سؤال واحد: لماذا تنقطع دورتي الشهرية الآن، وأنا بالكاد قد تخطيت الأربعين؟ وأخطأتُ فصرَّحتُ لزوجي بما يدور في نفسي، فقال ضاحكًا:

ـ عادي يعني، أحسن برضه. نضافة بدري بدري.

ـ تقصد إيه؟

ـ ولا حاجة ياستي، وبعدين ماهي الدكتورة قالت لك إن ده شيء عادي، وكل الستات بتعدي بسن اليأس.

ـ يأس من إيه، من الخلفة! ما أنا خلفت وكبَّرت.. ولو سمحت بلاش تقول كلمة اليأس دي.. عيب عليك.

ـ إيه هو العيب! ربنا من سابع سما بيقول: واللائي يئسن من المحيض..

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ اسمه مينوبوز.

ـ مينوبوز، جلكوز، كله ماشي. تعالي نجيب لك الدوا.

ـ نيفين كتبت لي على فيتامينات، مش دوا.

ـ ماشي، فيتامينات. اطلعي أنت وأنا هاعدّي على الأجزاخانة.

مرت على هذا اليوم شهورٌ ومازالت أ-حوالي متقلبة، لكنني تعلمت مع مرور الوقت ألا أفزع مما يمر بي، وأصبر عليه كما أوصتني «نيفين»، رغم أن الصبر أمرٌ عسير.. الأسبوع الماضي، استظرف زوجي وقال إنني بحسب تعبيره (سلِّمت نِمَر) في الوقت الذي أعتقد فيه أننا سوف نستعيد من جديد حياتنا الزوجية، بعد ابتعاد الأولاد. كان يقصد متعته الفراشية. فوجمتُ ولم أبادله الأحاديث الحمقاء، ثم أحسست نحوه باحتقار مفاجئ. لم يفهم صمتي، فأضاف أن صاحبه يسري رجع إلى شبابه بعدما تزوج مجددًا بعذراء لعوب. اضطربتْ معدتي. قال إنه يتمنى بعد عبوري من هذه (الدوشة)، يقصد أعراض المينوبوز، أن أنقص وزني وأستعيد رونقي الأول، وأرقص له مثلما كنت أفعل أيام العسل. فتركته جالسًا في الصالة، وذهبت للنوم بغرفة الأولاد التي صارت حصنًا لي.

* * *

صباح اليوم لم تأتِ الشغالة فكان أمامي تلٌّ من المواعين في حوض المطبخ. ومرتين، سقط طبقٌ من بين أصابعي أثناء غسله. ما الذي يجري معي، ولماذا لم أعد هادئة مثلما كنت؟ يقال إن هذه

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الآلام قد تستمر سنة أو تمتد سنوات لأنها لا ضابط لها ولا موعد انتهاء، فكيف سأحتمل وقد نفد صبري وانعدمت حيلتي؟ النسوة اللواتي عبرن فوق هذه الهوة، يزعمن أن حياتهن صارت أحلى. وهو ما أشك فيه. هل ستكون حياتي أحلى مع هذه التجاعيد وتساقط الشعر وضعف العظام.. ماذا سأطبخ اليوم؟ وما هذا الملل؟!

منذ ساعتين وأنا جالسة هنا بالصالة، لا أستطيع الذهاب ثانية إلى المطبخ، ولا أقدر أصلا على القيام من موضعي. ليس عندي ثقة في قوة ساقيَّ على حملي عند القيام، ولا ثقة في قدرة قلبي على الصبر إذا استدام هذا الهوان، ولا ثقة في الرجل الذي سيأتي بعد قليل ليأكل وينام حينًا ثم يذهب عني مجددًا. ليته لا يأتي. وإذا ذهب لا يعود، وإذا عاد لا يزعجني برؤية حالتي المزرية منعكسة على مرآة عينيه. نعم، تعاستي تنعكس على كل المرايا، وتظهر لي من غير نظر في أي مرآة. أنا أَدْرى بنفسي وخَجْلى مما صرتُ إليه. بشرتي خشنة وقد كانت من قبل ناعمة، وأنحائي لانت وما عادت مثلما كانت قبل سنوات قليلة، مكتنزة. وثدياي يواصلان الهبوط والاستسلام. فما عاد فيهما دمٌ دافق، ولا حليبُ رضاعة، ولا سحرُ اشتهاء. هذا قدر النساء ولا فرار لامرأة منه، لكنني الآن المحشورة المطحونة بين الحجرين، ولا أمل لي في استعادة ذاتي فليس لي إلا اليأس.. ربما يكون فعلًا سن يأس الأنثى من الأنوثة، آه ياني. ربنا يرحمك ياماما، ويسامحك.

◊

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ أشأمُ توأم ◊

بعد انتهاء يوم عملي بالعيادة، يعني في حدود الخامسة عصرًا، فوجئتُ باتصالٍ تلفوني من أخي «حسين» يخبرني بأنه في «روما» يحضر مؤتمرًا، وسوف يأتي لمصر غدًا فيبقى يومين أو ثلاثة، ثم يعود إلى أمريكا حيث يعيش ويعمل. وختم اتصاله بأنه سيصل صباح غدٍ ويريد أن يراني ظهرًا، بشقتنا القديمة! هكذا وصف المنزل الذي أعيش فيه منذ عشرين سنة مع زوجتي التي هي أنكد امرأة في تاريخ البشرية، وبناتي الثلاث اللواتي هن أجمل ما في الوجود.

«شقتنا القديمة».. لماذا استعمل هذا التعبير بالذات! صحيحٌ أن هذه الشقة المطلة بجانبٍ منها على الميدان، وبالجانب الآخر على الزقاق الذي صار اليوم مزدحمًا، هي البيت الذي وُلدنا فيه معًا وعشنا زمن النشأة، لكنه لم يدخله منذ خرج منه قبل قرابة ربع قرن. أمره عجب. كان يمكن أن أقابله في الفندق الذي سيُقيم فيه، أو نلتقي على العشاء في أي مكان مناسب، وتكون معي زوجتي والبنات. ما الذي يدور برأسه؟ عمومًا، واضحٌ من نبرته أنه لم يتخلَّ عن بروده المعهود.. لم تزد مكالمته عن دقيقة:

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ آلو، حسن، أنا حسين.

ـ أهلا يا حسين، بتتكلم من أمريكا؟

ـ نو، أنا في روما دلوقت..

ـ عندك مؤتمر؟

ـ آه، خلص إمبارح. على فكرة أنا جاي بُكره الصبح، وأحب أشوفك الضهر في شقتنا القديمة. يعني هاكون عندك الساعة خمسة العصر، تقريبًا، أو خمسة ونصّ. هتكون خلَّصت العيادة، صحّ؟

ـ صحّ.

ـ أوكي، أشوفك بُكرة. باي.

ياباي! إنسان غريب فعلًا. أنهى المكالمة من دون أن يطمئن على أحوالي أو يسأل عن بنات أخيه الوحيد، التوأم، وعن أُمهم. ولكن لماذا استعمل تحديدًا تعبير «شقتنا القديمة» وكيف قرَّر المجيء إلى هنا فجأة، وهو المشهور بالتخطيط بعيد المدى وبإعداد قائمة المواعيد مسبقًا، مؤكدًا التزامه بما يسميه «الأجندة» كأنه رئيس منظمة الصحة العالمية.. لا بد أن في الأمر شيئًا!

انتبهتُ من شرودي حين سألتني مساعدتي الممرضة المريعة «خديجة» إن كنت أريد شيئًا؟ قاصدةً أن موعد انصرافها حان منذ دقائق. شكرتها فانصرفتْ وبقيتُ جالسًا بموضعي مثل كومة حصى، ورويدًا، أخذ رأسي يدور مثل نملةٍ تائهة حتى نمَّلتْ ساقي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

اليسرى فانتبهتُ، ومتمهِّلًا قمتُ فخلعتُ عني (البالطو) الأبيض إعلانًا لانتهاء ظهيرةٍ سخيفة مملة، وبدء أمسيةٍ أسخف وأشد مللًا. ومثلما يحدث دومًا، استعدتُ لمسة الممرضة الساحرة «سمية» وعطرها الفوَّاح حين كانت تقف خلفي، وتكاد تلامسني، وهي تخلع عني البالطو وتعلِّقه بموضعه بعد انتهاء يوم العمل، الممتع.. «سمية» عملتْ معي بالعيادة لمدة شهرين وعشرة أيام، وقد مرَّتْ أيامُها السبعون كالحلم المفعم برحيق الحياة، حتى حَرَنت زوجتي وثار بركانها، فحرمتني من الرقة والنعومة الساحرة والإيحاءات التي تُحيي الموات، وفرضت عليَّ «خديجة» الجاثمة على روحي منذ عام. حاولتُ الاحتفاظ بالفاتنة «سمية» التي كنتُ فيما بيننا أُسميها (سمسمة) وأنتشي كلما تلامسنا بغير قصد، وكنا كثيرًا ما نتلامس بغير قصد! بذلتُ جهدي الجهيد للإبقاء عليها بالعيادة، وسلكتُ كل السبل، لكن «جوهرة النكد» لم تعطني أي فرصة. كانت تدخل علينا العيادة فجأةً، بمناسبة ودون مناسبة، وترمقني وترمقها بنظرات الغلِّ الكظيم. ولما رأتْ أن النظرات لا تُجدي، لجأت إلى الكلام المباشر:

ـ ممكن أعرف إيه حكاية الزفتة «سمية» دي؟

ـ مفيش حكاية، مالك بس يا «جوجو»؟!

ـ بقولك إيه، سيبك من الاستهبال ده، إنت عارف قصدي.

ـ لأ يا «جواهر» مُش عارف قصدك إيه.

ـ طبعًا، إنت ولا عارف أي حاجة في أي حاجة. بالذمة مُش

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

مكسوف من نفسك. أنا خلاص طهقت، والبنت دي لازم تمشي فورًا، أنا لقيت لك ممرضة تانية. أحسن منها ألف مرة. يعني، لو هنتكلم على الشغل فعلًا، إنما لو كُنت ناوي على قلة القيمة، خلاص اشبع بعروسة المولد بتاعتك دي، وطلِّقني. بلاش مسخرة.

لم أجرؤ ليلتها، طبعًا، على إخبار (الدكتورة نكد) بأن زواجي منها كان أصلًا هو عين المسخرة الكبرى، لأنه كان إقرارًا بقبولي نظام السخرة تحت سطوة الزوجات في بلادنا.. ظهيرة اليوم التالي ليوم التحذير الصارم والتهديد بطلب الطلاق، جاءت مبكرًا بالشمطاء الخانقة «خديجة» قبل وصول الحسناء «سمسمة» التي كانت رحيق روحي. فاضطررتُ إلى الاعتذار إليها، وصرفتُ لها راتب الشهر كاملًا، ورحلتْ متحسِّرةً وتركتني متحسِّرًا ومن يومها فقدتُ ترياق الحياة وبقيتُ محصورًا بين أنواع السُّميَّات: سحنة الممرضة، ولزوجة الزوجة، والملل من قلة المرضى وانعدام الأصدقاء.

* * *

متباطئًا كالمعتاد، أغلقتُ باب العيادة ودخلت من باب شقتنا ثقيلة الهواء، فوجدت «الجوهرة» متربعةً كعادتها بعريها المقزِّز، تشاهد المسلسلات التلفزيونية المُعادة. كانت في غرفتنا ذات الحوائط حائلة اللون، وكانت بناتي المسكينات ساكناتٍ في غرفتهن المزدحمة حوائطها بصور المجلات، كل شيء ساكنٌ كالمعتاد، ومملٌّ لم تلتفت سجَّانتي نحوي، فألقيتُ عني ملابسي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الخارجية وجلستُ بالداخلية على حافة سرير التعاسة، ونطقتُ من دون حماس:

ـ حسين اتصل من ساعة، وقال إنه هييجي بكرة يزورنا.

ـ حسين أخوكَ! إيه اللي فكَّره بينا بعد كل السنين دي؟ وده عاوز إيه إن شاء الله! وليه يعني هييجي هنا؟

ـ واللهِ ما أنا عارف.. هوَّ قال كده وخلاص.

ـ يعني إيه، وخلاص. أولًا البيت مُش نضيف والشغالة بتقول إنها عيَّانة، وانا ماعنديش أي استعداد اعمل أي حاجة، والبنات عندهم مذاكرة.. والصراحة، أنا مش عاوزة أشوفه أصلًا.

ـ ليه بس يا «جوجو»؟

ـ علشان بارد، ومُش متربي. وعامل نفسه مهم، علشان عايش بره. ونظراته كلها عنطزة.. وكمان...

ـ خلاص، هي قعدة وتعدِّي. وانا هاطلب بكرة مشويات للغدا.

ـ إيه ده! هوَّ كمان هيتغدَّى هنا؟

ـ يعني. الساعة خمسة معاد غَدَا، ولازم برضه نعمل الواجب.

ـ بلا واجب بلا نيلة يا شيخ، بلاش قرف.

كيف ورَّطتُ نفسي في هذه الزيجة اللزجة، وفاز «حسين» بزوجته الأمريكية الفاتنة.. والعجيب تفاخره أمامي بأنه يخونها

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

كلما سنحت له الفرصة، وأنا المخلص رغمًا عني! كل إنسان له في الحياة حظٌّ، إلا أنا، لا حظَّ لي إلا هذه «الجواهر» المتكومة أمامي بوسط الكنبة، كالأحجار الرخوة.. حين تعرَّفتُ بها، كانت قد تخرَّجت للتوِّ في كلية طب الأسنان، وكنت عائدًا من الإعارة جريح الروح، فظننتها ستكون شفاءً من كل آلامي، ثم اكتشفت سريعًا أنها الداء الذي لا شفاء منه. رفضَت العمل بحجة أنها تعاف من أفواه الناس، فسألتها أيامها: فلماذا درستِ طب الأسنان؟ فقالت لأن مجموعها في الثانوية العامة كان يكفي للالتحاق بهذه الكلية التي تطلب أعلى مجموع، فكان من الطبيعي أن تستفيد من علوِّ مجموعها. شيء يجنني. وسألتها أيامها إن كانت تحب أن تعمل في شركة أدوية، لتبتعد عن أفواه المرضى، فردَّت بأنها تنوي أن تنجب بعد حملها هذا خمسةً، وتتفرَّغ لتربية أولادها الستة. يا سلام. وبعدما أنجبت لي على التتالي ثلاث بنات، قالت إنها اكتفتْ ولن تسمح صحتها بالمزيد.

* * *

يوم أخبرتُ توأمي «حسين» بأنني سأتزوج، امتعض من تعجُّلي وكاد ينفجر غيظًا، وعندما عرف أن العروس اسمها «جواهر» انفجر ضاحكًا بسخرية، وحين رآها كتم ضحكته حتى احمرَّ وجهه. مع أنه رآها وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، وفي زينة العرائس ليلة الدخول. فماذا سيفعل غدًا عندما يراها بعد سنوات الهدم والتحطيم، وبلا مكياج، وغالبًا بلا ابتسامات

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

مرحِّبة به.. عمومًا، هي حين تبتسم في أحيانٍ نادرة، تصير أبشع منظرًا وأقبح ملامح.

ـ لو كنت عاوز تاكل، فيه مكرونة في الحلة الكبيرة على البوتاجاز، بس الصلصة خلصت.

ـ مكرونة من غير صلصة، إزاي بس؟!

ـ بقولك الشغالة مجتش النهاردة، ومُش جاية بكرة كمان، قال إيه عيَّانة. دي بقت مقرفة، ولازم ألاقي واحدة غيرها.

ـ خلاص، أنا أصلًا شبعان، بس وطِّي التلفزيون علشان أنام شوية.

ـ يووووه، إنت غاوي تعكنن عليَّ كده كل يوم، أنا سايبة لك الأوضة خالص. حاجة تقرف بجد. إفّ.

.. انزاحت عن ناظري فتنفَّستُ بارتياح وتمطَّيتُ على السرير مستمتعًا بالبراح والارتياح، لكنني لم أستطع الغرق في النوم مثلما يحدث في معظم الأيام، وبقيتُ أتقلَّبُ قلقًا.

برنامجي اليومي متشابهٌ، وليس عندي للأيام المقبلة (أجندة) لا طويلة المدى، ولا قصيرة. أصحو كل يومٍ في حدود التاسعة صباحًا، فأتحرَّك في الأنحاء المحدودة ببطءٍ حتى تقترب الساعة من الثانية عشرة، فأرتدي الملابس المناسبة وأخرج من باب الشقة وأدخل في باب العيادة الذي يليه. العيادةُ غرفة من غرف الشقة، الأربعة، فتحتُ لها بابًا مستقلًّا.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أبقى مرتديًا (البالطو) خمس ساعات، أستقبل خلالها مرضاي قليلي العدد، ثم أخرج من حيث دخلت، وأدخل من حيث خرجتُ. فأجد «جوجو» جاثمة على عروشها، الخاوية على عروشها، فأنام متقلِّقًا ساعةً أو ساعتين بعدما أتناول ما أجده من طعام، ثم أصحو في حدود الثامنة مساءً أو التاسعة، فأُذاكر حينًا لإحدى بناتي. أو أتصنَّع ذلك في حقيقة الحال، لأنهن جميعًا يتلقين دروسًا خصوصية في مواد الدراسة جميعًا. وحينًا أتكوَّمُ في ركنٍ، وأتصنَّع قراءة الجرائد، كأن فيها جديد.

في ابتداء زواجي خرجتُ مرتين وحدي بحُجَّة رؤية أصحابي، فماجت «جوجو» وانفجرت من شدة الغضب لأنه لا أصحاب من وجهة نظرها يستحقون إهمال الزوجة. صرتُ من يومها أصطف بجوارها على الكنبة أمام شاشة التلفزيون، حتى تملؤني السماجات فيغلبني النومُ بعد منتصف الليل بقليل. تلك هي أيامي الخامدة ولياليَّ الهامدة. لكني اليوم تأخَّرتُ في نومة ما بعد العيادة، وصحوتُ في غير الموعد المعتاد. كان «المنبه» السخيف الموضوع بجانب السرير يشير إلى الحادية عشرة، وكانت أميرة أحلامي القديمة الواهمة «جوجو» نائمة إلى جواري كالجوال المهترئ، بالطريقة اللائقة بكونها سيدة كوابيسي.

أظن أن خبر زيارة توأمي «حسين» لمنزلنا غدًا، أصابها بالغمِّ، فنامت بسبب وطأة الأمر على قلبها. خيرًا فعلتْ. تسحَّبتُ من سريرها حَـذِرًا، وخرجتُ من غرفتها شاعرًا بالجوع، فأكلتُ

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

المكرونة باردةً. ومن دون صلصلة. أثناء إعدادي كوب الشاي، الذي أخذته لأحتسيه في سلام بصالة الشقة خافتة الإضاءة.. لابد أن بناتي نائمات، فلا صوت يأتي من غرفتهن ذات الأسرَّة الثلاثة، ولا صدى يأتي من أي صوب. الشاي لذيذٌ حين نشربه على انفراد بهدوءٍ. فجأةً دهمني سؤالُ ما قبل نومي، وبعد صحوى: لماذا سيأتي «حسين» غدًا لزيارتي هنا؟

لأول وهلة، استطعتُ دفع السؤال بعيدًا عن رأسي، باعتبار أن غدًا لناظره قريب. ولكن الوهلة التالية عاد معها السؤال بقوةٍ وعنفٍ أنكى وأشد، نظرًا لأن «حسين» معروفٌ بأنه لا يقوم بأي خطوة دون ترتيبٍ سابق وإعدادٍ دقيق وهدفٍ واضح. هو على العكس مني تمامًا. ظهر اختلافنا الجذري أيام الدراسة الثانوية، فقد كنا من قبل ذلك نتماثل بل نتطابق في كل شيء: ملامح الوجه، الطول، الملابس التي تأتينا من كل زوجين اثنين، اقتسام اهتمام الأم والأب.. وقد استغل «حسين» هذا التطابق بأسوأ طريقة، فكان يفعل الأفاعيل ويفلت من العقاب فأتلقاه بدلًا منه. يلقي من الشرفة على العابرين الطوب، وقبل صعودهم للشكوي يُسرع إلى سريره ويصطنع النوم. سخيف. وفي المدرسة كان يخالف القواعد عامدًا، ويدفعني بدلًا منه في وجه المدرِّسين الغاضبين. لماذا كان يستمتع بمضايقتي وإيقاعي في فخاخه؟ ومع أنه استغلَّ كونتا توأمًا صنويًّا، أسوأ استغلال، كان هو المبادر فيما بعد لإبراز التمايز بيننا. بدأ ذلك حين ترك شاربه يطرُّ، فصار يبدو مختلفًا عني وأكبر عمرًا مني. ثم واظب على الذهاب إلى النادي الرياضي وتركني انتظم في مشاهدة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

التلفزيون، فأصبح بعد شهور أليق قوامًا وأقل سمنةً. ولما دخلنا سويًّا كلية الطب، صار يصادق الفتيات ويمرح معهن واحتفظتُ أنا بحيائي وخجلي، وكان يتعمَّد أن يشتري ويرتدي ملابس تخالف ما اشتريه وما أرتديه.. حين توفي أبي لم يحزن عليه كثيرًا مثلي، وحين أصرَّتْ والدتي على قبولنا بعثة الدكتوراة بأمريكا، لم يفكِّر في بقائها وحيدةً ويحزن مثلما تفكَّرتُ وحزنتُ.. وهو لم يتحرَّج مثلي من تلاوة قَسَم الولاء لأمريكا، واجتهد في السعي حتى حصل على الجنسية التي زهدتُ فيها. كنتُ أظن أننا بعد حصولنا على الدكتوراة سنعود إلى الوطن، فلا معنى للانسلاخ من ذاتنا لنيل الجنسية الأخرى وتلاوة يمين الولاء لبلدٍ آخر، حتى وإن كانت مجرد ألفاظٍ إجرائية.

عند عودتنا، بعد سبعة أعوام من الغربة الضرورية للحصول على الدكتوراة، ظهر مزيدٌ من التمايز بيننا منذ اللحظة الأولى. إذ عاملوه في المطار الأمريكي بالاحترام الواجب لمواطنيهم، وعاملوني بما يليق بالغرباء العائدين إلى قاع العالم. لم أهتمّ. وعند وصولنا إلى مطارنا عاملوه باللطف الواجب لمواطن أمريكي، وعاملوني بالسخف اللازم لمواطنينا البؤساء. فلم أهتمّ بهذه الصغائر. عندما وصلنا وجدنا أُمنا قد صارت عجوزا في الغابرين، كأن غيابنا امتد سبعين سنة، وليس سبعة. انخلع قلبي عند رؤيتها وأشفقتُ عليها من وضوح علامات رحيلها عن الدنيا، وتغافل هو عن الأمر وبقي أسبوعًا يدور على معارفه وأصحابه، ثم أخذ يشكو من الملل. لم يقبل الوظيفة الحكومية التي سنحتْ لنا ففرحتُ بها، فقد استخف

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بالوظيفة وبكل ما حوله وأراد العودة إلى أمريكا ليشق طريقه إلى الحياة التي وصفها آنذاك بالنظيفة، في إشارة غير لائقة إلى أن حياتنا هنا غير نظيفة.. أثناء استعداده للسفر، ظهرت له فرصُ عمل ببلاد النفط الشقيقة وعرض عليَّ الأمر فاعترضتُ، غير أن أمي أقنعتني بالذهاب معه ولو لعامٍ واحدٍ أو عامين، لأنها الطريقة الوحيدة لسداد الديون التي تراكمت عليها أثناء غيابنا. تقبَّلتُ على مضضٍ فكرة السفر، واستقلتُ من وظيفتي الحكومية بعد شهرٍ واحدٍ من استلامي لها، فرفضوا استقالتي وقالوا إنني لم أتثبَّت بعدُ في الوظيفة لأستقيل منها، سألتهم عما يجب أن أفعله في تلك الحالة فأجابوا: لا شيء، سافرْ وسوف تكون حالة انقطاع عن العمل. قلتُ: وما الفرق بين ذلك والاستقالة؟ قالوا: لا فرق.

سافر «حسين» قبلي بأسبوعين، لعدم احتياجه لتأشيرة البلد الشقيق، وحين لحقتُ به لاحظتُ أنهم هناك يميزونه عني في السكن، فلم أهتمّ. ويخصِّصون له سيارةً وسائقها، فلم أهتم. ويجعلون له سكرتيرةً سورية الأصل ساحرة العينين والنظرات، فتحسَّرتُ وأظهرتُ أنني لا أهتمّ.. ولكنني حين اكتشفتُ بعد ثلاثة أشهرٍ كان يخفي خلالها الحقيقة، أن راتبه الشهري يبلغ سبعة أضعاف راتبي، لأنه أمريكي! لم أحتمل، وقدَّمتُ استقالتي فقبلوها وعدت إلى مصر.. وطني الحنون.

أمي فرحت بعودتي إليها، واقترحتْ أمي أن أخصِّص غرفةً من شقتنا الواسعة لاستقبال المرضى، فوافقتُ ظنًّا بأن ذلك يُفسح

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أمامي المدى المفتوح للحرية والحياة الكريمة المستقلة، بعيدًا عن قيود الوظيفة الحكومية. أمي، المرحومة، فرحتْ وقتها بموافقتي واقترحتْ أن أتزوج الدكتورة «جواهر» حديثة التخرُّج، فوافقتُ ظنًّا بأن الزواج سوف يحلُّ كل مشكلاتي مع الكون. فرحتْ بموافقتي واقترحتْ لاحقًا أن نُسرع بالإنجاب كي تفرح بأحفادها، فوافقتُ ظنًّا بأن ذلك هو أقل القليل الممكن تقديمه لها عرفانًا بفضلها.. وهكذا صارت غرفة العيادة موضع ذبولي اليومي، وصارت «جواهر» هي مشكلتي الكونية الكبرى خلال العشرين سنة الماضية. العجيبُ في الأمر، والمدهش لمن لديه القدرة على الاندهاش، أن المرحومة أمي على موعدٍ مع الموت أثناء حمل «جوجو» فلم تَرَ الحفيدة الأولى لها.. أمر الله!

* * *

الفجر اقترب موعده، وصالة البيت أمستْ خانقة. تسللتُ كالسُّرَّاق إلى غرفة العيادة، وفتحتُ شباكها وباب شرفتها فامتلأت بنسمات الشفق المنعشة. لا مانع من جلوسي الآن في الشرفة المتربة المطلة على الميدان، ولا بأس لو رآني أحد العابرين، وليس مفروضًا عليَّ تبرير كل ما أفعله. تشجعتُ، وجلبتُ كرسيًّا جلست سعيدًا بممارستي حريتي الشخصية، وسعيدًا بل مشدوهًا برؤية نجوم السماء المستعدة للاختفاء عن الأنظار. منذ زمنٍ طويل لم أرَ السماء ونجومها. نسمةٌ باردةٌ مسَّتْ وجهي فكدتُ أبتسم ابتهاجًا، ولمستْ رأسي البرودةُ اللطيفةُ فحلَّقت في سمائي الأفكارُ الغريبة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

المتضاربة فيما بينها: مهما كانت الحياةُ كئيبةً، فإنها لا تخلو من لحظات حانية كهذه. في حياتي مبهجاتٌ لا يستهان بها، أهمها بناتي الثلاث اللواتي أكدح من أجلهن وأفرح بنجاحهن. البلوى التي تزوجتها، أصيب بعضُ الناس ببلايا أشد منها وأنكى فصبروا عليها. سخرية «حسين» الدائمة، مني ومن زوجتي التي يسميها (البعبع) ليست أكثر من مضايقات مؤقتة، وكذلك حرصه على التحقير من شأني بمناسبة ودون مناسبة، وإصراره على تسميتي: الوطني. الشقيق قد يكون مشتقًّا من الشقاء، والتوأم قد يكون هو الشخص الأشأم، ولكن تبقى الحياة محتملة. إن كان «حسين» سيأتي بعد ساعاتٍ ليطالبني بحقه في شقتنا، على الرغم من ثرائه، فسوف أتغاضى عن سخفه وأُقسِّط له المبلغ على دفعات. كل ليلة سأغمض عينيَّ وأتخيَّل أن النائمة إلى جواري ليست «جوجو» وإنما الفاتنة «سمية»..

ما هذا الصفاء الرائق، النادر.. ها هو أول نور النهار، وها أنا وقد صرتُ فجأةً متحرِّرًا من كل أحوالي، ومن كل ما سبق وما سيأتي، ومني.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ سلاسةُ السلاسل ◊

«أحبُّ هذه الطيور وأحسدها. لأنها تستطيع ما لم أقدر عليه أبدًا، ولن. أعني التحليق عاليًا، وبعيدًا. سيكون بديعًا لو صرتُ يومًا واحدًا من تلك العصافير المحتشدة في صخب العصاري، حول هذه الشجرة الوحيدة الباقية قرب البيت.. كانت الأشجار هنا كثيرة، حتى وقعت المذبحةُ التي تمت قبل سنوات واجتثتْ فيها الأشجارُ الكبارُ المصطفة بانتظام على طول الرصيف، لأن فروعها تضايق شرفات وشبابيك السكان! زعموا أيامها أنهم يقطعون الأشجار خشية أن تضغط جذورها القوية على أساس البيوت المطلة على الميدان، فتسقطها، وأنهم سوف يزرعون مكانها أشجارًا أرق منظرًا وألين جذورا. وقيل إنهم غرسوا شجيرات تشكو اليرقان، صباحًا، وظهرًا اقتلعها الصبيانُ الذين كانوا يلعبون في الميدان. أنا لم أشاهد هذه الشجيرات مغروسةً ولم أشهد اقتلاعها، لكنني أصدق كل ما يقال، بدلًا من إجهاد نفسي في التكذيب والشك وطلب الدليل.. لو صرت فجأةً عصفورًا، لهجرت هذه الشرفة الضيقة محدودة المطل، وهاجرت من دهاليزي الخانقة إلى غير رجعة. الله. سأتخلص بذلك

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

من كل ما يضايقني، ومني، وممن يحيطون بي ويرخون حول عنقي وقدميَّ وأنفاسي السلاسل اللامرئية، ثم يتركونها تنكمش فتضيّق عليَّ الخناق.

لو صرت عصفورًا سوف أسكن قبة الأفق، ولن أحط أبدًا، إلا بالنواحي الرحبة البعيدة عن البشر.. ولكن ماذا سأفعل لو استجابت السماء لأمنيتي بمكرٍ، فصيّرتني طائرًا لا يطير فأكون لا قدَّر الله كالبط منتوف الريش! نعم، هذا واردٌ في الأحلام وأمرٌ محتمل، ولن يحتمل. لا، سوف يحتمل وهو الآن محتملٌ بالفعل! لأن حالي الذي يتحدى احتمالي، لا يختلف عن حال ذكر بطٍّ منتوف الريش..».

اقتحمتْ رائحُة البصل المقلي الشرفة، وحاصرت الزاوية القابع فيها «خالد الخلاع» مستمتعًا بدوران رأسه مع شظايا الخواطر العصفورية، المحلقة به بعيدًا. فلما هزمته الرائحةُ فقام متأففًا وأوصد عليه ضلفتي الشرفة، ثم عاد ليتخندق في موضعه الأول ويوالي هيمانه مع خواطره المريحة، لأنها مستحيلة، ولا تكلِّفه أي مجهود.. وكعادته، لم ينتبه «خالد» إلى أن أمه العجوز «محفوظة الحضري» جالسةٌ هي الأخرى بالزاوية ذاتها في الشرفة الأخرى. والشرفتان متقاربتان، مفتوحتان على الميدان المفتوح عليه الزقاق، لكن الدولاب المعدني الطويل الموضوع في شرفة غرفة «خالد» وزوجته «ثناء» يعوق النظر إذا أراد أن يمتد بين الشرفتين، ويمنع تمامًا الرؤية بينهما.. الشرفة الأخرى، فيها هي الأخرى كراكيب كثيرة وكراسٍ مهشَّمة وأخشابٌ لم ترض أمه عن التخلص منها.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

عاد «خالد» إلى خواطره الخطيرة آملًا أن يستكين، كي يستكمل جولان أمنياته الهوجاء، المستحيلة. إلا أنه سقط فجأة في بئر الذكريات! إذ سأل نفسه سؤالًا لا معنى له ولا داعي، عما إذا كان قد أخطأ حين هجر «نهال» التي كان يظن أنه يحبها، وتزوج هذه «الثناء» المنهمكة الآن في المطبخ لإعداد وجبة الغداء؟! قال في نفسه: لا، ليس هناك أي خطأ، فأنا لم أتأكد قط من حبي لنهال، وهي لم تقل يومًا إنها تحبني. وكانت تغتاظ من ترددي، مع أنه طبيعي في تلك الأمور المصيرية، ولما تحدثت معها بصراحة صدمتني بأننا لن نصلح كأزواج.. يومها كانت منزعجة فأفزعتني:

ـ ليه بتقولي كده يا نهال؟

ـ لأنك أصلًا، لسه موش عارف إنت عاوز إيه..

ـ يعني هاكون عايز إيه، متهيأ لي إننا بعد أربع سنين مع بعض، الطبيعي بعد كده نتجوز.

ـ أيوه يعني، على أساس إيه؟ وبعدين إنت متأكد إننا فعلًا، مع بعض من أربع سنين؟

ـ طبعًا. إحنا بنتقابل في الكافيه ده كل فترة، وبنسأل على بعض بالتلفون، وبفكر فيكِ كتير. يعني بحبك..

ـ «يا خالد، قلت لك ميت مرة قبل كده، الحب حاجة والجواز حاجة تانية خالص.

ـ «قصدك يعني يا نهال علشان مرتبك أكبر من مرتبي بكتير! ما

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

هو ده طبيعي، إنت بتشتغلي في شركة خاصة، وأنا موظف متثبِّت في الحكومة، يعني وظيفتي مضمونة..

ـ المرتب مالوش دعوة، موش هوَّ ده قصدي.

ـ أُمَّال إيه قصدِك، قولي بصراحة يا نهال: إنت موافقة نتجوز ولا لأ؟

ـ لأ.

كان الكلام غير مُجدٍ، والسنوات الأربع، فكانت تلك هي الجلسة الأخيرة والنهاية الرخيصة للقصة السخيفة التي شعر «خالد» بأنها لم تكن مفيدة في أي شيء. واختفتْ نهال لكن إلحاح أمه الدائم لم ينقطع، ولم تفوِّت أي فرصةٍ أو وسيلة إقناع أو عبارة من نوع: يا بني نفسي أفرح بك! نفسي أشوف أحفادي! سُنَّة الحياة! يا بني أنا رجلي والقبر! ربنا يهديك يا بني وتسمع الكلام!

ومن أيامها صارت «ثناء» المرشحة الأولى والوحيدة، زوجة.. وثم مضتْ أربعةُ أشهر من دون حَبَل، فعاودتْ الأمُّ الطنين: خير يا «ثناء» لسَّه مفيش حاجة! يا صبر أيوب! يا بني خدها لدكتور يمكن فيه مشكلة!

«المشكلة، لن تفهمها أمي أبدًا. ففي ليلة العُرس كانت زوجتي مطلية الجسم بالكريمات العطرية، ومفعمة الأنحاء بالرائحة البرفانية الفواحة، فأقبلت عليها مدفوعًا بحرمانٍ لحوح وثأرت بها من شُحِّ السنوات الطوال، وتم المأمول. ولكنها لم تحمل.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

في اليوم التالي تحمَّمتْ «ثناء» وأسبغتْ، فشممتُ حين اقتربت منها رائحة جسمها، فانهارت عزائمي. هذه الرائحة لا اسم لها ولم أشم مثلها من قبل، لكنها في خاتمة المطاف، منفرة. احترت أيامًا واحتارت معي وامتلأتْ حيرةً فبدتْ غير شهية بالمرة، وفي ليلة رائقة النسمات تجاورنا فيها بالشرفة، طلبت منها بعد صمت طويل أن تتعطر عند اللقاء الفراشي ففعلت، وليتها رفضتْ، فقد امتزجت بالعطر الرديء رائحة جسمها فصارت في أنفي كالغاز الخانق، وانهارت مجددًا عزائمي.. وازداد الانهيار بعد أيام، عندما أخبرتني «ثناء» بصوتها المتحشرج أن أمها أخبرتها بما أخبرها به الطبيب، فنفرتُ أكثر واقترن بالنفور الغيظ من نظراتها الغبية، ومن ضحكاتها المفتعلة ومن تزلفها المكشوف لأمي. صرت أعافها ولا أحتمل رائحتها في الفراش، فأُولي وجهي إلى الجهة الأخرى لأرحم نفسي بقدر المستطاع من الشم واللمس والسمع والنظر، ومن التذوق والحاسة السادسة.. وليت أمي، مع ذلك كله، ترحمني من الترهات وسخائف العبارات والإصرار على إنجاب ولد لكي يخلد اسمي. كيف سيخلد اسمي ما دمتُ إنسانًا محكومًا عليه بالموت بعد حين، والابن الذي سأنجبه سوف يحتاج بدوره إلى من يخلد اسمه، لأنه محكومٌ عليه بالموت بعد حين! ولماذا أسموني بهذا الاسم الكاذب «خالد» وهم يعلمون أنني فانٍ مثل بقية البشر، وليس هناك خالد إلا الله»..

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

«ما آخرة هذا العذاب، الذي لحق بي من حيث لا أدري. وكيف سأصبر على زوجي المهزوم هذا، الجالس في شرفته مثل كومة من الفخار المتكسر، ينتظر ما أطبخه للغداء. هو لم يكن زوجًا إلا ليلة واحدة، بعدها خرج من الخدمة إلى غير رجعةٍ ولم يعد قادرًا على شيء إلا الشكوى من ضيق صدره واحتباس أنفاسه، ومن ضعف ساقه وركبتيه، ومن ملاءات السرير لأنها ليست نظيفة. أمي أكرمها الله هي التي كشفت لي سِـرَّه، بعدما أخبرها به الطبيب وصدمها بالحقيقة المفجعة.. قالت لي:

ـ شوفي بقى يا «سُـن سُـن» أنا سألت الدكتور «عنتر» عن الوضع بتاع جوزك..

ـ هو فيه دكتور اسمه عنتر!

ـ أيوه. ده جار «يسرية» بنت عمي، ومراته صاحبتها. أنا حكيت ليسرية وهي حكت لصاحبتها وهي حكت لجوزها وعرفت منه كل حاجة.

ـ عرفت إيه يا ماما؟

ـ جوزك عنده عجز ولازم يتعالج، واحتمال كبير يكون مفيش رجا منه. بس إنتِ لازم تصبري، لحد ما نشوف آخر الموضوع.

ـ بس يا ماما، هو في أول ليلة كان كويس!

ـ أيوه، أنا قلت كده للست يُسرية وهيَّ قالت لمرات الدكتور وهوَّ قال لها إن دي كانت صدفة.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ يعني إيه صدفة.. صدفة، يعني خلاص يا ماما مُش هتتكرر تاني أبدًا؟

ـ الدكتور عنتر بيقول إنه أكيد ليلتها كان واخد منشطات كتير علشان يقدر، وبعدين هبط.

ـ طيب أعمل إيه دلوقت يا ماما؟

ـ انسي الموضوع ده خالص، وركزي مع أمه الحيزبونة علشان ماتتقلبش عليكِ، وبعد كام شهر كده نشوف هيحصل إيه، ونتصرف.

احتارت «ثناء» فيما يحيط بها، ولم يكن يخطر لها من قبل على بال. ودامت حيرتها شهرًا أو خمسة أسابيع، وبعد ذلك اعتادت على العبودية المقنَّعة وتقبلت كونها خادمة مؤقتة، بغير أجر، تنتظر الفرج الذي قد لا يأتي.

وهي تقشِّر البصل وتقطعه سالتْ مع دموعها مساربُ الذكريات البعيدة والقريبة، وتدفقت. كان آخرها ما جرى ليلة أمس عندما كانوا جالسين، ثلاثتهم، بالصالة يشاهدون بعيون المشنوقين فيلمًا مملًّا مليئًا بالمواجهات الشرسة بين الأشرار والأخيار، وسوف ينتصر الخير بطبيعة الحال في النهاية مثلما هي العادة في أفلامنا. لا ينتصر الخير إلا في الأفلام. فجأةً ومن دون أي مناسبة، قالت «محفوظة» أثناء إلقاء بطل الفيلم وابلًا من الطلقات، إنها تود أن يأكلوا في غداء الغد بازلاء!

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وفي الصباح، أثناء دوام «خالد» في وظيفته الهلامية الحكومية، ذهبت ثناء إلى السوق فاشترت الخضروات ونصف كيلو لحم (موزة) لا يشبه أي موز، وجادلت البائع في السعر بقدر ما استطاعت مستعملة البراهين المعتادة: اللحمة المستوردة أرخص في الجمعية التعاونية!

ـ روحي هاتي من هناك.

ـ أنا خدت منك نص كيلو من أسبوع، وكان أرخص من كده.

ـ ده كان من أسبوعين، وبعدين كل حاجة بتغلى إلا البني آدمين.

ـ بس اللي بتطلبه ده كتير؟

ـ مافيش حاجة تكتر عليك يا قمر، خديه ببلاش خالص بس هاوديني وريّحي بالي، وأنا أدلعك آخر دلع..

ـ يا راجل عيب على شيبتك.

ـ الدهن في العتاقي.

وهي تقلي البصل مع بعض فصوص الثوم، هاج الوجد بقلب «ثناء» وصعب عليها حالها فاستكملت بكاءها، بلا بصل، حتى احمرت التقلية فألقت فوقها الطماطم المقطعة والصلصة المذابة في كوب ماء.. تهرأت قطعُ الطماطم مع دوام التقليب، وكانت قطع اللحم المسلوق تدور في حسائها بالإناء الآخر الموضوع فوق النار، وتضطرب حركتها مثل قلب «ثناء». حدقت بذهول وهي تسكب التسبيكة وحبَّات البازلاء وقطع الجزر الأصفر فوق

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

اللحم، وتمنت لوهلة أن تلقي في الإناء بعض سم الفئران! ثم ثابت لرشدها واستغفرت ربها، وعادت لإيقاعات الوداعة والاستسلام. خلال الدقائق القليلة التي كان الإناء الأول يهرك محتوياته تحت قوة الغليان، كانت «ثناء» قد غسلت كوبي الأرز وأضافت المقدار ذاته من الماء، وتركت الإناء الألومنيوم المسمى (حلة الرز) لدقائق فوق النار القوية. وظهر لها أن وجبة الغداء أوشكت على الاكتمال، فبدا لها أنها أيضًا أوشكت على الانتهاء والذبول وفقدان المعنى واكتمال الحسرات.

كان يمكن لثناء، بعدما هدأت النار تحت الإناءين، أن تخرج من المطبخ حتى تنقضي ساعة النضج على النار الهادئة. لكنها فضلت البقاء حيث هي، كيلا ترى زوجها وحماتها إن خرج أحدهما من شرفته التي ينتظر فيها الانتهاء من إعداد الغداء.. الجو هنا حار، والبخار يملأ الأنحاء بالرائحة الشهية لمن يشم ولمن كان جائعًا، الخانقة المزعجة لمن فقد الشهية.

شعرت «ثناء» وهي تنظر نحو الموقد المتراقصة عيناه باللهب الخفيف، أنها فقدت كل ما كانت تتمناه. أرادت (السعد) فوجدت التعاسة، وأرادت إرضاء حماتها فوجدتها امرأةً خرفةً لا تعرف معنى الرضا، وأرادت زوجًا تتفاخر به بين القرينات ففضحها بين الأقارب. أرادت عمودًا صُلبًا تستند بظهرها إليه أحيانًا، وأحيانًا تحتضنه، فوجدت حبلًا مرتخيًا لا يصلح إلا لصنع مشنقة.. وكانت في طفولتها تريد تغيير اسمها هذا الذي تكرهه، وتتمنى استبداله

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

باسم رقيق مثل «ندى، مي، نورهان» لكنها عرفت أن كاتب السجل المدني سمع من أبيها الألثغ الاسم المختار «سناء» على أنه ثناء. ثم صُدمتْ حين عرفت أن معنى هذا الاسم هو (المدح) واستسلمتْ بعد الحسرات، عندما أخبروها أن الأسماء لا يمكن تغييرها.

* * *

«هوسة.. حياتي التي تتهيأ للانتهاء، كانت كلها هوسات لا معنى لها، ولم يعد عندي من ذكرياتها الكثير، لأنها أصلًا كانت خاوية وليس فيها ما يستحق التذكر. نعم، شعرتُ بالسعادة يوم خرجتُ من بيت أبي إلى هذه الشقة، إذ ظننت أنني تحررتُ من سجني الكريه. لكنني اكتشفتُ أنه كان مجرد انتقال من زنزانةٍ لأخرى، فزوجي أبو خالد «صبحي الخلاع» غيور هائج لأوهى الأسباب، طويل اليد واللسان، وكان يلتزم حرفيًّا بالوصايا الخالدة لأمه الشمطاء التي كان اسمها خالدة: ادبح لها القطة! خليك معاها راجل وملو هدومك! بلاش الهزار معاها علشان الدلع آخرته مش كويسة! اضرب المربوط يخاف السايب.. منها لله هي وابنها الذي ضيَّع عمري هباءً منثورًا، فلم أخرج من عشرته إلا بولدٍ لا يستطيع أن يعطيني حفيدًا. وبعد معاناة استطالت عشرين عامًا، صرت (أرملة) وأمًا لطفل وحيد، وقد بلغت من عمري الأربعين ولا أمل لي في زواج آخر.. واليوم، على مشارف السبعين، لم أعد أحلم إلا بالحفيد المستحيل. آه يا ركبتي».

كانت أم خالد على وشك استعادة ما تكرِّره دومًا، هامسةً به لنفسها سرًّا. وليس فيه إلا إحساسها بظلم أبيها لها، ثم جناية زوجها

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

عليها، ثم خبث الأقارب الذين نصحوها بعدم الزواج بعدما ترملت، لأنه عيب ولن تستطيع المحافظة على ابنها. وكانت كالمعتاد سوف تنتهي من تأملاتها اليومية الفادحة، إلى النتيجة ذاتها: مطلوب منها منذ يومها الأول أن تحافظ على سمعة أبيها، ثم سمعة زوجها المتهور، ثم مستقبل ابنها الضعيف.. هي دائمًا وأبدًا حافظة. مع أنها اسمها محفوظة.

لم تستكمل العجوز التأملات لأن «ثناء» قطعت حبل أفكارها المتهرِّئ، وهي تصطنع الابتسام أملًا في الحصول على الرضا أو حتى الحياد، لحين بيان البيان.. قالت: البسلة خلصت يا خالتي والأكل جاهز على السُّفرة.

* * *

اجتمع الموتى الثلاثة على مائدة الغداء، وأكلوا وهم صامتون.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ التسليةُ بالتعزية ◊

أظنُّ أنني الآن نسيت المرحومة، تمامًا، بل أنا متأكد من أنها صارت ذكرى عبرت كدخانٍ ذهب مع الهوا.. آه.. هذا أمرٌ طبيعي لا يثير دهشةً أو استغرابًا من أي نوع، فالإنسان مجبولٌ على النسيان! وصدق الذين قالوا إن اسم «إنسان» مشتق من النسيان.. ليس الإنسان فحسب، بل كل كائن له روح وقلب، فالقلب سُمي بذلك بسبب تقلُّبه والروح اسمها مشتقٌّ أصلًا من الرواح والمجيء والحضور والغياب وتحول الأحوال. ولهذا نقول إن الخروج من الملل والهم والضيق هو (الترويح)، مؤكدين بذلك أن الثبات والجمود والسكون وغيرها من مذموم الأحوال، تُفضي إلى الذميم من المشاعر كالإحساس بالضيق والهم والملل.

نعم، النسيان طبيعة إنسانية. وهو نعمة، لأن التذكر والذكرى والمذاكرة، نقمة. الذكرياتُ تسميةٌ مهذبةٌ لحالة احتلال من خارج الزمن الحاضر، أو تعبير مخادع عن استبداد الماضي بالحالي أو اجتياح يطحن القلب أسى ويستكن به فلا يقدر على التقلب وقد تقصُّ الذكرى أجنحة الروح، فلا تروح ولا تستروح ولا تحلق كي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

تحط بأقصى الآفاق الواقعية والخيالية.. النسيان حياة، وأنا الآن حيٌّ إلى حين، ومن البديهي جدًّا أن أنسى المرحومة زوجتي، بعدما مرت على وفاتها سنون ثلاث حافلة بالأحداث. الله يرحم الجميع، الأحياء والموتى. هذا دعاء مريح نتأسَّى بترديده دومًا، متغافلين عما يتضمنه من إلغاء لمعنى المعاد والدينونة والحساب في آخرة الأيام.. ولأن الغفلة تُريح، فالتغافل يكون أحيانًا من علامات الفطنة.

.. لما نسيتها بعد فترة من وفاتها الفاجعة اختلفت الأشياءُ من حولي، وحلَّقت روحي، وتقلب القلبُ حتى كاد يهترئ من فرط المرح بين الخدائق والمروج. حتى هذا السرير، صرتُ أراه في كل صباح باكرٍ، أرحب وأكثر اتساعًا وترحيبًا بالزائرات المواظبات والمحتملات من دون أدنى توتر داخلي أو ارتباك.. أصحو فجرًا وفي داخلي يقين بأنني أملك بالكامل هذا السرير، وأنفاسي الهادئة هذه، وسجائري التي تنتظر طيلة نومي العميق حتى تلبي نداء صحوي باحتراق واحدة منها قبل القيام بأي عمل. طبعًا، في حياة المرحومة لم أجرؤ يومًا على التدخين هنا فور انتباهي من النوم، ولم أغامر بمجرد التفكير في هذه المتعة المبكرة. فقد كانت، رحمها الله ورحمني من بعدها، تتأفف بلطفٍ باردٍ وبإصرارٍ إذا دخنتُ بأيِّ مكانٍ خارج الغرفة التي جعلناها مقر مكتبي لمزاولة المحاماة.

يا سلام، خيوط دخان سيجارتي الافتتاحية تتماوج من فوقي مثل لعوب خبيرة بالفنون الخفية، والسرير يمتد من حولي ويفتح

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أطراف اللحاف محتويًا راحتي الحالية، وأحلامي.. هذا السرير «عِشرة عُمر» استطالت لثلاثة وعشرين عامًا من دون انقطاع، وعليه ارتضعت ابنتي الوحيدة التي حُرمت منها مؤخرًا، فلم أجد بدًّا من تناسيها هي الأخرى. حتى كدت أنساها، أو أتأسَّى عنها بسبب أسى ابتعادها عني، حتى أعتاد التأسي عن غياب أي شيء. ليس بيدي غير ذلك. مع أنني في بدايتي كنت أتحرق شوقًا للذرية، وأهفو لفكرةٍ وهميةٍ مبهمة: أن يكون لي ولدٌ يكبر معي ويبلغ العشرين حين أبلغ الأربعين، فنعيش عشرين عامًا كأصدقاء حتى أموت في سن الستين. وتناسيتُ أن الموت ليس له سن مخصوص. هام وهمي بداخلي فدفعني إلى الإقدام على الزواج بالمرحومة فور حصولي على ليسانس الحقوق، واقترح أبوها أن نسكن معه حينًا من الدهر، حتى نتمكن من تأسيس وتأثيث بيتٍ للزوجية. يبدو أن (حماي) كان أيامها يعاني من الفراغ الذي أعانيه الآن. فلما طُلِّقت ابنته الأخرى «فاتن» وجاءت بولديها كي تسكن مضطرة بيت أبيها، كان لا بد لنا من إيجاد مأوى آخر. خصوصًا أن المرحومة كانت حبلى، وكان الحال يُنذر بالانفجار السكاني.

ومن حُسن حظي أيامها أنني وجدتُ هذه الشقة ذات الغرف الثلاث، فقالت المرحومة وقد بلغ بطنها أقصى قدر من الاستدارة، إنه أنسب مكان لنا. لأن غرفة ستكون لنا، والثانية لأطفالنا الذين بدءوا يتوافدون على بطنها، والثالثة لممارسة مهنتي النبيلة: المحاماة. وأعطتني حُليها الذهبية، فبعتها وأكملت المبلغ المطلوب المسمى (خلو الرِّجل) وصار لنا من حينها هذا البيت. هي لم تنجب

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ولدًا مثلما توقعتُ، ولم تنجب بعدها مثلما توقعتْ، فارتضينا بطفلةٍ واحدةٍ أعطتها المرحومة الاسم الرائج أيام اكتشاف الناس للإسلام «إيمان».. لم أفهم يومًا معنى هذا الاسم، لكنني أحببته لاحقًا بسبب التصاقه بابنتي، بهجتي الوحيدة، كنت أقول للمرحومة: اسم فيروز أجمل! فتقول إنه اسم قديم. وإيمان أرق. أسألها: إيمان بماذا؟ فتقول: عيب عليك الكلام ده..

ما وجه العيب! أليس من طبيعة الإيمان أن يكون بشيءٍ محدد؟ ومن شروط الإيمان بشيء، الكُفر بنقيضه! وماذا لو كانت قد أنجبت الولد الذي كنت أتمناه، هل كانت ستعطيه الاسم: يقين.. قلتُ لها ذلك أيامها، فضحكت وهي تقول: كنتُ سأسمِّيه «مؤمن».

اليوم، أنا لا إيمان عندي ولا يقين. ففي التاسعة عشرة من عمرها تزوجت بهجتي الوحيدة من ابن خالتها «فاتن» الذي يكبرها بسبعة أعوام عجاف. اسمه «مهاب» وأنا أسميه أحيانًا (هباب) وأحيانًا: البغل.. هو أثقلُ أهل الأرض ظلًّا وأسخفهم على الإطلاق، لكنه محظوظ. حظي بابنتي الجميلة، المهذبة، الولود، الرقيقة. وحظي بعد زواجه بعقد عبودية مؤقتة بالبلد النفطي الشقيق، والتزق هناك بابنتي وأحفادي منذ ست سنوات، يطمح أن يجعلها ستينًا ليجمع مزيدًا من المال بلا اهتمامٍ بالمآل. لما سافرت ابنتي تبدد الإيمان من سماء هذا البيت، وحزنتِ المرحومة وأظهرت الفرح.. والاحتمال الأرجح عندي، هو أن حزنها قتلها، وإلا فلماذا قامت تصرخ في جوف الليل، ثم لم تمكث في المستشفى إلا ثلاثة أيام وهي غائبة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

عن الوعي، وفجر اليوم الرابع غابت عن الوجود. الأطباء قالوا إنه سرطانِ الرحم وقد استشرى، وهذا عندي غير مقبول بالمرة. كيف يستشري السرطان فجأة من دون أن تشعر من قبل باقترابه؟! ولماذا تصاب به وهي لم تدخن يومًا ولم تكن تتعرض للتلوث الذي يعربد في شوارعنا؟! فهي لم تكن تعمل. كانت ربة هذا البيت، المالكة، المتصرفة، وأنا الضيفُ الوافد الذي يدخِّن خفيةً، ويخرج للمحكمة في معظم الأيام حتى وإن انعدمت جلسات قضاياه، ويهتم بأمور السياسة حتى يتجاوب مع مناقشات زملائه بغرفة المحامين.. المرحومة رحلت عني وهي في التاسعة والأربعين من عمرها، وهي يانعةٌ شهية، ومن يوم رحيلها المفاجئ لم تعد لهذا البيت ربة، وما عادت من بعدها الطمأنينةُ التي كانت تسكن هنا.

ليلة وفاتها توافد الجيران على المستشفى للمواساة، ثم احتشدوا في سرادق العزاء ليشغلوني بالتعزية، عن فهم فاجعة رحيلها دون مقدمات. في العزاء سلوانٌ مؤقت وتشويشٌ يصرف الأذهان عن الفاجعة الأفجع من موت شخصٍ يرتبط بنا، أعني الحقيقة الواضحة القائلة بهمسٍ إن كل راحلٍ عنا يرحلُ معه جزءٌ منا، لن يعود، ففي موت من حولنا موتنا. فهو إنذار مبكر يؤكد موتنا المؤجل والمهلة المؤقتة التي نسميها الحياة، فنحياها بالسلوان والتشاغل بالذكرى العطرة والتعازي.. التعزيةُ تسليةٌ، والسلوانُ حيلةٌ بائسة.

بعد دفن المرحومة بيومين جاءت «إيمان» بطفليها ومعها زوجها البغل للتعزية، فلم أدرِ ساعتها على من يجب العزاء. ولمن. ولما

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أفقتُ بعد حين أدركتُ أن الناس كلهم في تعازٍ دائمةٍ وتشاغلٍ عن الرحيل المحدق بالجميع.. البشر أفراخٌ تدفعها الحياة دومًا لإشباع نهم الموت، فلا هو يشبع ولا هي تكف عن دفعنا نحو فمه. إيمان ابنتي استطاعت ما لم تستطعه أمها المرحومة، ولم تنجب ولدًا بل ولدين وبنتًا، وحبلى بالرابع! كان (البغل) متباهيًا بملابسه الجديدة والعطر الخليجي الذي يفوح من طياته. بغل. هل يصح التعطر عند العزاء؟ ربما، ما المانع؟ هي كلها مواساة وتسلية بائسة لن تقدم ولن تؤخر، ومن قبل حدوثها ومن بعده محكوم عليها بالفشل. لا، هي تنجح مؤقتًا في صرف أذهاننا، عن عبثية حياتنا. فليتعطر البغال أو لا يتعطروا، ويرتدوا الاسوداد أو البياض الساذج أو أي لون. لا فرق، فهذا كله عبث.

نعم، العبثُ علاجٌ ناجعٌ ينجح مؤقتًا في عمل التشويش الذي يعزِّينا عن موتنا المحتوم، هذا مكر. ومن مكر البشر الاضطراري ووسائلهم في الاحتيال على نفوسهم: مواجهة الموت واقتحامه بالحروب، وإعلاء الحماقات المسماة (شجاعة) والانهماك في التنافس لاستنفاد الطاقة، واكتناز ما لا حدَّ له من المال ومخايلة اليقين بأنه زائل عن أيديهم أو الأيدي زائلة عنه وستتركه ميراثًا.. ومن فنون المكر، والمرح بحرية والشغف بالنساء. بعد تعزية الجيران وزيارة «إيمان» التي لم تمتد إلا يومين، لأن زوجها لم يستطع الحصول على إجازةٍ من مالك رِقِّه المسمى (كفيل)، انفردتُ هنا بنفسي وأمعنتُ التفكير لإيجاد سبيلي لمواجهة موتي المحتمل في أي لحظة.. كنت أيامها في الثالثة والخمسين من

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

عمري، فرأيتُ أن أمامي مهلةً غير محددة الموعد، وعليَّ أن أحيا إلى حين بالانهماك المقصود، المبالغ فيه، الممعن في التعزية بالتسلية.

رحبتُ بقضايا الأحوال الشخصية وأعطيتها اهتمامي، فأعطتني ما أحتاج.. حين بدأتُ العمل بالمحاماة من مكتبي المنزلي، كنت مترددًا في مسألة التخصص فأقنعتني المرحومة بالابتعاد عن الجنايات والمخدرات، مع أن هذه القضايا مكاسبها المالية كبيرة. قالت إن عملاء هذه القضايا هم أراذل الناس، وهي لا تحب أن أحتكَّ بهم وأن يأتوا إلى هنا. وأعادتْ عليَّ ما كنت قد أخبرتها به في فترة الغفلة، من أن الأحكام القضائية في قضايا المخدرات تُبرئ المدان غالبًا بسبب خطأ الإجراءات، وفي الجنايات الكبيرة يترفَّق القضاةُ خشية الخطأ فيقبلون أي شكوك في أدلة الإدانة، ويفسرون الشك لصالح المتهم. المرحومة قالت إن ذلك يتعارض مع نُبل مهنة المحاماة! فقد كانت تصدق ما أقوله لها أيام خطوبتنا من أن المحاماة أنبل المهن. وأكَّدتْ أنها ستعيش معي راضيةً بأقل القليل، مادمنا نفعل ما هو واجب علينا من نصرة المظلوم! وهكذا صارت قضاياي كلها، أو معظمها، مدنية.. مملة.. زهيدة الأجر مديدة الأجل في المحاكم.

ولأنني كنت أحكي للمرحومة كل شيء، كي نبقى على تواصل. أو بالأحرى، لأنني كنت أحب طريقتها في الإنصات لي، ولمعة عينيها أحيانًا حين أخبرها بحل قانوني مبتكر لمشكلة أحد العملاء.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

فقد صارت رويدًا تحيط بتفاصيل عملي كلها، ومواعيد الجلسات، وحساب الأتعاب. وقد أقنعتني أو قمعتني برفق فأطعتها، وقبلتُ رأيها في الابتعاد عن الأحوال الشخصية لأنها تجعلنا نحدق في أسوأ ما يمكن أن يفعله الأزواج ببعضهم البعض. فكنت أقبل من هذه القضايا أقل القليل، وبشروطٍ كثيرةٍ أهمها ألا تكون الشكوى من امرأة.. فإن كان، لا تكون هذه الشاكية جميلة.. فإن كان، لا تكون هذه الجميلة خليعة.

* * *

بعد وفاة المرحومة انطلقت في عالم الأحوال الشخصية وتنازع المتزوجين وتعمقت في قاع الشخوص. ونجحت بسرعة لم أتوقعها، لأنني ابتكرت طرقًا أخرى لمعالجة هذه القضايا، بعيدًا عن ساحة المحكمة، وكانت كلمة السر: المصالحة والعفو عما سلف، أو الانتقام التام والزؤام.. وفي ثلاث سنوات رأيت ما لم أره في ثلاثين، واستمتعتُ باللعب والمرح بين مروج القوانين والمشاعر الإنسانية، ونظرة الجميلات لي باعتباري المخلص. المخلص لا يخلص، لكنه يعطي الشعور الممتع بالدعم اللامحدود، فتستريح النفوس وتميل. وقد تتمايع، فتسنح لحظة القطف.

جلبتُ إلى سريري كثيرات، كنت أحصيهن عددًا حتى تجاوزن العشرين. لكنني لم أتحرش بواحدةٍ قط. كان شعاري طيلة هذه الأعوام المفعمة بالمتعة، أنني لا أطارد امرأة ولا أطرد امرأة. كل النساء جميلات، وهنَّ بُرهاني على تفوقي وتأكيد رجولتي

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بخضوعهنَّ لعنفواني. وهو أمرٌ أجد فيه الطمأنينة. أيام المرحومة لم أكن مهتمًّا بتأكيد شيء، وكنت مطمئنًّا لرجولتي وغير محتاج لأي إثبات! ما الذي جرى لي؟

* * *

عادةً أُشعل سيجارة واحدة في فراشي، وفور إطفائها أقوم لإعداد قهوة البن المحوَّج، وعلى مهل أرتدي الملابس المناسبة للمحكمة. أو أتفنَّن في كتابة المذكرات المفعمة بالدفوع المفحمة، أو أفكر في حيلةٍ تسترضي زوجًا غيورًا وتقنعه بأن امرأته المريعة، بريئة. لكن هذا الصباح مختلف. صحيحٌ أنه لا جلسات اليوم عندي بأي محكمة، ولا قضية تحتاج إجهاد الذهن أو إعمال العقل الماكر. غير أن هذا لا يبرر بقائي في الفراش طيلة هذا الوقت، وتدخيني لأربع سيجاراتٍ متتاليةٍ من تلك الساحرات البيضاوات. كنا أيام شبابي المبكر نسمي السجائر: الساحرة البيضاء! لكنني اليوم لم أعد مسحورًا، ولا مصدِّقًا أن التدخين يسبب السرطان، ولا واثقًا من رجولتي.

ما الذي جرى لي؟ وما هذا الصباح الغريب.. هل أستريح إذا اعترفت الآن بأنني هش جدًّا، وتائه! لا داعي لأي اعتراف، ولن أضعف أبدًا أمام نفسي، وسوف أقاوم هذه الرغبة الغريبة في البكاء. ولماذا أبكي، مادمتُ قادرًا على النهوض من سريري هذا وعلى إغواء أي فاتنةٍ تبدأ بإغرائي وعلى مواصلة النجاح في عملي وعلى الاستمتاع بحريتي الكاملة في الحياة. حتى لو كنت قد بلغت من عمري السادسة والخمسين، وأنحدر بسرعة إلى سن الستين التي اعتقدت قديمًا أنها

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

سن وفاة معظم الناس. لا أعاني من أي مرض، ولا شواهد تدل على انتشار السرطان سرًّا في جسمي، ولا علامات على وفاة مفاجئة. فلماذا أشعر بأنني لو انهزمت أمام نفسي! سوف أبقى متماسكًا إلى الرمق الأخير، وسأقوم بعد قليل من سجني الاختياري هذا، وأعد قهوتي المعتادة، ثم أحكي تلفونيًّا مع زبونتي القديمة المثيرة «شهد» أو الجديدة الخجولة «دعاء» التي جاءتني بالأمس تشكو من خيانة زوجها المستمرة، وكانت عيناها تلهج سرًّا بالدعاء. والاستدعاء، والدعوة.

* * *

أشعلتُ آخر سيجارةٍ بقيت في العلبة، واشتعل معها باطني حين سمعت أذان الظهر يأتي من وراء الجدران والستائر المسدلة.. سوف تحترق سيجارتي بالكامل خلال دقائق، فأضطر للخروج من أسر هذا السرير، من دون اعترافٍ صريحٍ بأنني مهزومٌ تمامًا أمام نفسي، وأمام زمني الذي يتسرب من بين أصابعي، فأراه مهدورًا.. لا، لن أعترف بأنني الميت الحي الذي يحن للمرحومة. للربة التي كانت هنا لعشرين عامًا، ثم غابت فجأةً، فغبت.. رحلتْ، فرحلتُ.. ماتت، فمات معظمي.

◊

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ تمام التاسعة صباحًا ◊

جيراننا جامحون عن عمدٍ، وربما بتصميم على الجموح، فهم إذا فرحوا استجلبوا البهجة من تحت الأرض ومن فوق السماء، واصطخبوا كأنهم لم يعرفوا حزنًا في حياتهم-وهم على النقيض تمامًا من ذلك حين يحزنون ويلتفون بالاسوداد ظاهرًا وباطنًا، ويستدعون من الأسى ما يجعلهم من أتعس البشر. وحتى لو كان الفاصلُ بين الفرح والحزن، لا يتعدَّى أيامًا معدودات، فهم جاهزون دومًا للتحول والاستجابة لهذا وذاك.. على أية حال، اليوم في الحارتين والزقاق يومُ فرحٍ لأن جارنا «نديم» ابن الحاجة تحية الحضري، المتخرج قبل شهرين كطبيب أسنان، سوف يتزوج في المساء جارتنا «رهام» ابنة الأستاذ حسن السواح والست نجيبة.

«نديم» يسكن بالطابق الأول من المنزل الثالث على يمين الداخل إلى الزقاق من جهة الميدان الدائري، وتسكن أسرة «رهام» بالحارة القبلية في البيت قبل الأخير.. وقد بدأت زيجة اليوم فجأة مع سيلٍ من الرسائل، بعث بها «نديم» إلى تلفون «رهام» المحمول، فكان ما كان مما سيأتي ذكره. قال في رسائله

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

المكتوبة كلماتها العربية بالحروف الإفرنجية وبالأرقام الدالة على الحاء والعين والهمزة:

- صباح الخير يا ريهام أنا نديم حسن أخدت رقمك من نوسة علشان عاوزك في موضوع مهم وهي أكيد قالت لك، ممكن أكمل؟
- يظهر إنك لسه ما فتحتيش رسالتي اللي فاتت.. أنا بقى لي ساعة منتظر ردك.. عمومًا النهارده طلعت نتيجة الكلية. واتخرجت الحمد لله بتقدير جيد مرتفع وعاوزك في موضوع مهم، ممكن تردي لو سمحتِ؟
- ظهر عندي إنك فتحتِ الرسالتين من ساعة ونص. أرجوكِ رُدّي علشان أكمل كلامي. الموضوع مهم.
- واضح إنك مشغولة عني. بس قشطة. عمومًا أنا هاقول لك كل حاجة..

* * *

بعد هذه الرسائل الأربع، الافتتاحية، ظل «نديم» يكتب الرسائل ويبعث بها تباعًا، من الساعة الثامنة مساءً حتى الثالثة والنصف فجرًا. وهو ما كان يكفيه بالكاد ليحكي كيف هام بأجمل إنسانة في الكون «رهام» منذ كان في المرحلة الثانوية وهي في الإعدادية، وأنه مؤمن بأن الله وفَّق أمه لشراء هذه الشقة بعد وفاة أبيه وعدم استطاعتها البقاء في بيتهم القديم، فقط، لكي يجمعه بمحبوبته هذا الجوار.. وباح لها بأنه لم يستطع من قبل التصريح لها بحبه، حتى لا تظن به الظنون وتتوهم أن قصده غير شريف. لكنه اليوم تخرج، وسوف يجهِّز خلال

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

هذه السنة التي سيقضيها كطبيب امتياز، غرفة من الغرف الأربع بشقته، لتكون عيادة، وغرفة أخرى لتكون سكنًا لهما بعد موافقتها علي الزواج. والشقة واسعة. وسوف تستقل أمه بأصغر غرفة وبالتالي يكون لأطفالهما غرفة خاصة، أما الصالة الفسيحة فستكون لسفرة الطعام والجلوس واستقبال الضيوف.

وخلال رسائله، شرح «نديم» أحوال محبته وحكى لمحبوبته أنه كان يترقَّب من شرفته مرورها وهي تعبر أمامه مثل ملاكٍ يمشي في الزقاق. وأن عقله طار وطاش حين سمع الشخص التافه «ميدو ملاهي» يحكي للأصحاب أنه كان في الصغر يأخذها معه إلى الأراجيح التي بوسط الميدان، ثم صارا يذهبان معًا إلى الملاهي ويخطف منها القُبلات في (بيت الأشباح) ثم عرفا طريقهما في الأمسيات إلى غرفة (الكراكيب) المنزوية بسطح منزلها.. هو طبعًا لم يصدقه، لأن هذا الشخص الحقير كذاب بطبيعة الحال، ولا يعقل أن ملاكًا مثلها يفعل هذه الأفاعيل مع حيوان مثله. ولهذا فقد ابتعد عنه وقاطعه، ومنذ عدة سنوات يتجنب الكلام معه ولا يقترب من مجلسه، لأنه لا يحب أمثاله من الكذابين، المدَّعين، غير المؤدبين.

وخلال رسائله وعلى سبيل الطمأنة وتهدئة الخواطر، أخبرها «نديم» بأن أمه امرأةٌ طيبةٌ، هادئة، ولا تتمنى من الحياة إلا أن ترى الأحفاد. وهو لن ينجب لها هؤلاء الأحفاد، إلا من الإنسانة الوحيدة التي أحبها بصمت طيلة السنوات العشر الماضية، ولن يحب غيرها حتى نهاية حياته. أجمل فتاة في العالم «Reehammm».

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وأكَّد في سيل رسائله أنه لا يهتم إلا بها وبأخبارها، وطبعًا لا يصدق إلا ما يقبله قلبه، لأن الناس تكثر الكلام وتخلط الصدق بالكذب. حتى هذه الصداقة التي تجمع «رهام» مع البنت «نوسة» المشهورة بسوء السمعة وشرب الحشيش. هو يعتبرها نوعًا من الجيرة لا الصداقة، ولا يظن أصلًا أن «نوسة» سيئةُ السمعة أو شاربةُ حشيش، بدليل أنه حين طلب منها رقم التلفون مؤكدًا أن مقصده شريف، لم تتأخر، وفرحتْ بالأمر وتمنت التوفيق. فكيف تكون غير شريفة، وتفرح بمقصد شريف وتتمنى له التوفيق! وقد تعلم من أمه منذ الصغر، ألا يصدق كل ما يقوله الناس. لأنهم أحيانًا يكذبون، وقليلًا ما يصدقون، وغالبًا ما يخلطون الصدق بالكذب.

ولإبهار «رهام».. اختتم «نديم» رسائله بعشرةٍ في كل رسالة منها الكلمة ذاتها مكتوبة عشر مرات، فصار المجموعُ مائةً من كلمة: بحبك..

* * *

«رهام» لم تر الرسائل. لأن «نوسة» كانت قد احتاطت والتزمت بما يجب من الحذر، فأعطتْ «نديم» رقم تلفونها الآخر، السري. فاستقبلت هي سيل الرسائل. ولما تتالتْ كلماتُ الحب المائة، الختامية، بكتْ حتى شجَّ حنجرتها النشيجُ المكتومُ، من شدة أسفها على حظها العاثر الذي اختار لها أن تولد وتنشأ معدمةً، بين سكان السطوح. الأقل مكانةً وقدرًا من سكان الحارتين، الأقل بدورهم من سكان الزقاق، الأقل طبعًا من سكان الحيِّ الراقي الواقع بالجهة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الأخرى من الميدان.. وحتى الصباح، بقيت «نوسة» مسهدة حائرة فيما أوقعت فيه نفسها، بغير قصد.. ثم وجدت في خاتمة المطاف الحل.

في اليوم التالي، عند عودتها من عملها اليومي بمحل الملابس الداخلية (بوتيك ست الحسن) وجدت «نوسة» المحب الملتهب جالسًا يترقب من شرفة شقته، فأشارتْ إليه فهبط مسرعًا إليها ولحق بها عند محل السندويتشات المطل من جهة على مدخل الزقاق، ومن الأخرى على الميدان. وهو المحل المشهور المسمى حسب اللافتة المعلقة عليه (أصل الطعامة)، لكن الجيران يعرفونه باسم: رمرمة.. جاء «نديم» متلهفًا، لامع العينين من خلف نظارته الطبية، ومستبشرًا. ابتسمت له فابتسم وألقى التحية المعتادة باحترام، سألته إن كان قد تكلم مع «رهام» فيما كان يريد، فأخبرها بأنه خجل من الاتصال فأرسل رسائل. لكنها لم ترد عليه. فأظهرتْ له «نوسة» الاندهاش، وطلبت منه أن يتأكد من الرقم. لأنها تشك في أنها ربما سهتْ بالأمس فأعطته رقم «رهام» القديم، وهو رقم ظل معها فترة طويلة، لكنها قامت مؤخرًا بإلغائه وبالتالي فهي لم تعد تستعمله.

بدتْ ملامح الإحباط على وجه «نديم» حين اكتشف أنه أرسل سيله إلى رقم مُلغى، واستغرب أن تلفونه كان يستقبل إشارة تخبر بأن الرسائل وصلتْ، وفُتحت من المرسل إليه! فأجابته «نوسة» بالعبارة المعتادة: يبقى عيب في الشبكة، ساعات كتير بيحصل.

ـ طيب ممكن يا نوسة لو سمحتِ، نقعد شوية في أي مكان قريب؟

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

ـ آه طبعًا. مفيش مانع، ممكن نقعد شوية في كافيه «صهللة» بس بلاش نروح على هناك سوا، يعني علشان الشكل وكده.

سلكا طريقين متخالفين، يلتقيان عند المقهى الأنيق بالمنطقة الراقية القريبة، وهناك انزويا بأحد أركانه.. لم يُرد «نديم» أن يبدِّد الوقت، فانطلق لسانه مفصحًا لها عما كانت قد عرفته، وعبَّر بلطفٍ عن ولعه وحبه ورغبته في الزواج من «رهام» التي وصفها بالملاك. كانت تعلم أنها ليست ملاكًا ولا شيطانًا، وإنما بنت مثل بقية البنات، لكنها حافظت على هدوئها وصمتها لإيهامه بأنها تصغي إليه.. تشجَّع، فأفاض في بيان أنه منذ رأى «رهام» وحتى اليوم، هو يحبها ويحترمها ويقدر شخصيتها. كانت تعلم أنه منجذب إلى بياض بشرتها، ونعومة خصلة الشعر التي تتركها «رهام» تنفلت من تحت ستر رأسها، لكنها سكتت منتظرة أن يُنهي كلامه ويطلب منها المساعدة في تيسير الأمر وتسييره.. تأنق في الكلام، وتخيَّر الألفاظ وهو يمتدح «نوسة» ويطلب منها أن تساعده في مفاتحة صاحبتها، تمهيدًا لطلب يدها. فوعدته بذلك وواعدته على اللقاء بهذا المكان، بعد غد، وسوف تسعى لإحضار «رهام» معها، ثم تتركهما معًا لإفساح الفرصة للمفاتحة.. شكرها وهو مبتهجٌ، مضطرب القلب، فقامت بعدما طلبت منه أن يتأخر عنها قليلًا في المغادرة.

في طريق عودتها قطعت «نوسة» الشارع الطويل بخطى تائهةٍ متحيرة، وعَبَرت الميدان كالمهجَّرين حتى دخلت الزقاق كالمسلوبين.. مع لفحات الهواء البارد لوجهها، كان قلبها يسيل

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

أسفًا وحسرة على حالها. فهي تكبر صاحبتها المحظوظة بخمسة أعوام، وتتمنى ما تتمناه البنات ولو مع شاب بائس، لكن أحدًا لم يتقدم لخطبتها بعد. مع أنها طيعةٌ لا تشترط شيئًا، ولم تطمح فتطلب فيمن يطلبها أن يكون شابًا متعلمًا ومؤدبًا وأنيقًا وميسور الحال مثل «نديم».. واست نفسها بأن لكل فتاة نصيبًا سوف يأتي مهما تأخر مجيئه، وانقبض قلبها حين تذكرت «محاسن» التي تعمل معها في البوتيك، وغيرها ممن فاتهن قطار الزواج حتى أسكن فيهن الذلَّ، فكسونه بالاستهانة. ولكن ما عساها تفعل وبشرتها صدئة اللون، وأسرتها منفِّرة، وليس لها من الجمال المحسوس نصيب؟ صاحبتْ عديدًا من الشباب وخرَجتْ معهم على أمل أن يصدق حالُ أحدهم فيطلبها للزواج، لكنها وجدتهم جميعًا عيال. وحاولتْ استمالة بعض الرجال الأكبر سنًّا، فكان العُزَّابُ منهم مُعقَّدين، والمتزوجون شكائين مما يعانونه لكنهم لا يريدون زوجة أخرى. ومعظمهم خبثاء.

«سوف يأتيني نصيبي، ولا يزال أمامي ثلاثة أشهر حتى أصل إلى سن الثلاثين».. قالت نوسةُ ذلك في سرها، وهي تصعد السلم إلى شقة «رهام» التي كانت جالسة بجوار أمها تشاهد التلفزيون، وهي تلف نفسها ببطانية ناعمة. حكتْ لهما ما كان من أمر «نديم» الذي طلب منها رقم «رهام» بالأمس، فتوجَّستْ وأعطته رقمًا قديمًا كانت تستعمله، فاستقبلت عليه رسائل يستأذن فيها «رهام» لطلب يدها، فلما وجدت أن قصده شريف قابلته اليوم مقابلة سريعة، وأخبرته بأنها سوف تنقل رغبته لصاحبة الشأن وتبلغه

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بالرد. لم تعقب «رهام» بشيء، وقالتْ أمها بعد أن شكرت «نوسة» على اهتمامها وحسن تصرفها، إنها سوف تفاتح زوجها في الأمر لأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، وطلبت منها ألا تتحدث إلى (العريس) بأي شيء، حتى تتم الموافقة ومباركة الأمر. لأن الاستعجال، حسبما قالتْ، خطأ.

وهي تهبط الدرج، شعرت «نوسة» بأن بداخلها فراغا كالهواء الأسود القاتم، وشعرت بإنهاك وهي تصعد سلم البيت الأخير بالحارة لتصل إلى غرفتهم النابتة فوق السطح، وسط غرف كثيرة يسكنها كثيرون لا يُحصون عددًا وفاقةً.. فور صعودها ذهبت إلى غرفة جارتهم السطوحية «أم التيتي» آملةً أن تجد عندها قطعة حشيش أو سيجارة ملفوفة تهدئ بها ثوران رأسها. ضحكت أم التيتي ضحكتها الفاضحة حتى بدت أسنانها المتكسرة، وهي تقول: كان من عيني يا نور عيني، بسْ العملية ناشفة خالص من امبارح.

فاقدةَ الآمال ومحبطةً كمعظم الجيران من شبابنا، سارت «نوسة» يائسة إلى غرفتهم كمن لا يريد أن يصل إلى وجهته، وفور دخولها ردَّتْ الباب وألقتْ عنها ما كانت تلبسه، وبعدما ارتدت المعلق من ملابسها بالمسمار المدقوق خلف الباب، علَّقْت عليه ما كانت تلبسه.. كانت أمها تطبخ شيئًا لا رائحة له بمنتصف الغرفة، لتدفئها، فلم تلتفتْ «نوسة» إليها واستلقتْ من فورها على الكنبة التي تستعملها سريرًا، واستجلبتْ إليها النوم فرارًا من الملل بأن غطت جسمها اليابس بالبطانية الخشنة، وشدَّتْ طرفها فأخفت

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

تحته وجهها.. وفي غمرة هذا الظلام المفتعل، غاصت في شجون لا قاع لبحرها.

* * *

فور مغادرة «نوسة» لشقتهم أرسلت الستُّ «نجية» ابنتها الصغرى لاستدعاء زوجها على عجَل من جلسته البائسة بالمقهى، وأوصتها: قولي له في ودنه، ماما عايزاك دلوقت حالًا في موضوع مهم جدًّا..

جاء الأستاذ حسن بوجه فيه قلقٌ وتأففٌ وإذعان، فانفردتْ به زوجته التي يدللها فيما بينهما باسم (الحكومة) وحكت له ما كان من أمر (العريس) مؤكدة أنها فرصة لن تتكرر، ولن تضبطره لاستبدال شيء من معاشه أو عمل (جمعيات) لإتمام الزيجة، فالمطلوب للزيجة لن يزيد عن غرفة نومٍ يمكن شراؤها بالتقسيط المريح.. وختمتْ رؤيتها المستقبلية بضرورة التعجيل بإتمام هذا الزواج، لأن العريس (لُقطة) وعلى نياته، ومن الممكن أن تخطفه فجأة فتاة أخرى.. والاستعجال، حسبما قالت: واجب. لأن خير البر عاجله.

خلال الشهرين الماضيين، أخطرت «نجية» العريس بضرورة أن يتحدَّث إلى أمه في الأمر، ثم تحدثتْ هي معها، ثم استقبلته وأمه، ثم قرءوا الفاتحة، ثم استجابوا لرأي زوجها الأستاذ «حسن» بأن يكون عقد الزواج والدخلة في اليوم نفسه، ثم اجتمعتْ الآراء على أن الخطبة إذا طال وقتها سخفت، ثم حدَّدوا موعدًا.

اليوم هو الموعد.. في تمام الساعة التاسعة صباحًا، بدا الصباحُ مبشرًا ومشجِّعًا على جموح الأفراح، فقد تناثر من قبة السماء المليئة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

بالغيوم رذاذ مبهج لم يصل إلى حد المطر، وإنما استدام ساعةً خفيفًا على هيئة الرهام. وهذا نادر الحدوث. صارت أرضية الزقاق والحارتين، المكنوسة جيدًا منذ الصباح الباكر نظيفة إلى درجة اللمعان، ولا أثر فيها للمعتاد من الغبار.. عمال كهربة الأعراس جاءوا بالأسلاك المعلَّقة فيها اللمبات الملونة، وراحوا تحت رذاذ الرهام يعلقونها بين الشرفات، فانطلقتْ الزغاريدُ من الأسطح والنوافذ وبعض المداخل والشرفات، فاستنفرتِ النسوةَ المبهجاتِ الساكناتِ في (بيت الهوانم) فانطلقن في ماراثون الزغردة. وفازت فيه كالمعتاد «فايزة الفِرْعة» الحسناء المعروفة عند رجال الجيران والشباب بأسماء متعددة وأوصاف لا حصر لها: الصاروخ، الوزة، الكهربا، القذيفة.. وغير ذلك من ألقاب التشريف الأنثوي.

اصطخب الجيرانُ جميعهم، أو معظمهم، وتبادلوا من الشُّرفات والنوافذ كلها عبارات التهاني والأماني ودعوات التمام على خير، وارتفعتْ من الأجهزة الإذاعية العالية أغنياتُ الأعراس والمناسبات السعيدة، فتحركت بالرقص أطراف أرداف البنات الصغيرات وبعض النسوة متوسطات العمر وقليل من الكبيرات.. كن في الصباح يرقصن في بيوتهن محجوبات، كأنهن يتدربن على ما سوف يفعلنه في المساء أثناء حفل الزفاف، أو ما يتمنين أن يفعلن.

.. يبدو أن النجوح في الفرح، وفي الأحزان في أيام أخرى مختلفة الحال، هو إحدى الوسائل التي يستشعر بها أهلونا حياتهم الباهتة في أغلب الأوقات.

* * *

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

حين تناثر الرهام بالخارج كان «نديم» بداخل غرفته يجلس على حافة سريره، مدهوشًا من أن حبيبته التي كانت في ظنه مستحيلة النوال، سوف تستلقي الليلة في وسط سريره الجديد، عارية.. وكان الأستاذ «حسن السواح» يداعب ابنته الصغرى مبتهجًا بزواج أولى بناته، وسعيدًا بأن الزيجة لم ترهقه ماليًّا مثلما ظل يتوهم لسنواتٍ سبقتْ قبل الظهور المفاجئ للعريس (اللقطة) وكان عقله الراضي يفكر في كرم الله.. وكانت زوجته «نجية» في المطبخ تقلِّب ذكر البط المحشي بالفريك، وتُصبِّع الكفتة، وتُسبِّك كباب الحلة. وغير ذلك مما سيأكله الليلة العروسان. ووسط الدخان المتصاعد من أواني الطبخ، وخلال انهماكها فيما تفعل وابتهاجها بالزغاريد الآتية من بعيد، كانت تفكر ويدور رأسها حول المحور الأهم، وهو السؤال الوجودي الخطير الذي تصبوغه في رأسها على النحو التالي: يا ترى البنت رهام الخايبة دي، البرُطَّة، هتعرف تسيطر على حياتها وحماتها وجوزها؟

وكانت الحاجة «تحية» جالسة على سجادة الصلاة، تدعو لابنها بالسعادة وسرعة الإنجاب وملء البيت من حولها بالأحفاد، وتحمد الله على أن (تحويشة العمر) التي تركها زوجها المرحوم، تُنفق في أفراح وليس في مآسٍ وأمراضٍ وأتراح، وتفكر أيضًا في أنها تقدمتْ في السِّن واقتربتْ من الموت.. وكانت «نوسة» ملتصقة بمكان نومها، تستبطئ القيام لبدء يومٍ حاشد، وتتذكَّر تفاصيل اليوم الأخير لعُرس أختها «فوقية» التي تزوجت قبل عامين بشخصٍ بائسٍ. أخذها للعيش معه، أو للممات الحي، في طرف كفرٍ تابعٍ

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

لقرية تابعةٍ لبلدة تابعةٍ لمركز تابعٍ لعاصمة محافظة تعيسة بالدلتا. وكانت أيضًا تفكر في مأساتها.

.. وحدها «رهام» الجالسة بكل كسلٍ على سريرها، هي التي كانت لا تفكر في أي شيء.

◊

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

◊ محفوظ حافظ ◊

منذ ظهور هذا الرِجل والناسُ هنا مختلفون فيه، فلا يكاد جماعة منهم يتفقون على قولٍ حتى يبدلوه بعد حين، وقد جنح ببعض الجيران الخيالُ الخلاق فاعتقدوا فيه ما لا يمكن تصديقه.. بدأ أمره في صبيحةٍ شتويةٍ دافئة، بدا فيها الزقاقُ والحارتان مثل غابةٍ غناءَ عامرةٍ بصنوف الكائنات، ومفعمةٍ بالحياة. وفي غمرة الصخب الصباحي المعتاد جاء مرتديًا ملابس خشنة، لا هي بالرخيصة الرثة، ولا هي بالفخمة المتفاخرة. لم يلتفت يمينًا أو يسارًا وهو يقطع بأقدامه واثقة الوقع، الزقاق بطوله، ثم يميل وقورًا كنمرٍ شبعان إلى الحارة البحرية حتى يصل إلى قطعة الأرض الخالية بآخرها، التي كنا نسميها: الخرابة.. خلال سيره المتأني، كان كأنه لا يرى ما حوله أو لا يهتم به، بل إنه مرّ بمجلس الرجل المهيب «مسكين البرطوشي» المسترخي على الدكة التي أمام منزله كالفهد، ولم ينظر نحوه أو يرمي التحية المعتادة.

وبعدما وصل الرجل الغريب إلى (الخرابة) توغل فيها حتى وقف على أعلى تلالها، وببطء الفِيَلَة أجال عينيه بين أكوام القمامة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وتلال الخردة وبقايا الجدران المهدمة من زمن، ثم رفع ناظريه إلى أسطح البيوت الثلاثة المحيطة بالأرض اليباب، ثم انزلق ببصره على جوانبها المحدِّدة للخرابة من الجهات الثلاث.. بدا أثناء وقوفه فوق الطلول كالنسور، أو مثل ناسكٍ هندىٍّ يتأمل امتداد سطح المحيط ويرى ما تحته من حيتان وأحياء دقيقة الحجم، ويصلي صلاة غير معهودة.

وكما هو متوقع، انسرب نحوه صغار الجيران وأحاطوا به، ثم لحق بهم بعض الكبار المشغوفين بما لا يخصهم، فصاروا من حوله كالدائرة.. تقدم إليه جارنا المشهور بالبرود «نظمي الودنان» وسأله: خير يا حاج! فلم يرد عليه، ولا حتى التفت نحوه.. ساد الصمتُ برهةً، ثم انسحب من لسانه الولد الصغير ابن فتحي الفران، وقال للوافد المريب بلسان بريء: يا عم، أنا اسمي «رامي» وساكن في البيت ده، إنت مين بقى؟ ابتسم الرجل مثلما يبتسم المجهدون، وبرفقٍ قال بصوتٍ خفيضٍ عميق: أنا مقاول، اسمي محفوظ حافظ، اشتريت الأرض دي وناوي أبني فيها عمارة.

* * *

وبالهدوء الذي به جاء، ذهب، وكاد يُنسى. لولا اعتياد الجيران على الفتيا تطوعًا ومن دون احتياج إلى داعٍ، لأن الوقت هنا لا يمر إلا بالتحدث أو الاستماع.. بائع البطاطا الواقف بعربته الصغيرة عند افتراق الحارتين عن الزقاق، قال إن هذا الزائر وجهه مألوف بالنسبة إليه، وبعد سويعةٍ أضاف أنه لمحه مرة في الشارع الهادئ المهيب

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

الذي بآخره مبنى المخابرات. هذا هو الكلام! إذن الرجل كان هنا للتحقُّق من أمرٍ خطيرٍ خافٍ، وسوف يختفي في الأيام القادمة أحد السكان. عقَّب «سلامة القهوجي» على كلام بائع البطاطا المشوية بقوله إنه يشك في أن جارنا الجديد «حمدي الحيران» جاسوس، بدليل أنه اشترى الشهر الماضي لزوجته فستانين، ويلبس منذ أسبوع (بدلة) جديدة، ويخفي عينيه خلف نظارة معتمة.. كاد الجميع يعتقدون صحة ذلك، لكن الحقيقة انكشفت ساعة العصر حين اكتشف حكماءُ الحارة أن هذا الزائر الغريب وكيلٌ معتمدٌ لشركة كبيرة تعمل في التجارة التي راجت مؤخرًا، وهي تهجير الشباب المتعلمين إلى الغرب. ليبقى الجهلة في البلد فيخربوها. وقد استتر خلف ادعائه بأنه مقاول، لئلا ينكشف الملعوب، لكنه كان يرصد ما بقيَ هنا من شبابٍ مهرة ومتعلمين.

ساعة المغرب اكتشف الجميع أن الحقيقة التي ظهرت عصرًا، غير حقيقية، وما حكماء الحارة إلا ثلة من المخرِّفين. فالرجل فعلًا مقاول ولكن اسمه ليس محفوظ حافظ، وإنما حافظ محفوظ، وهو يريد أن يشتري البيوت المجاورة للخرابة التي اشتراها فعلًا، لينشئ هنا فندقًا كبيرًا لراغبي الفرجة علينا من الأجانب، لأن هؤلاء لديهم اهتمام برؤية عجائب المخلوقات وغرائب البشر. لكن ذلك التفسير انهار من أساسه حين صاحت «أم زغلول» بأن الأجانب يروننا في برامج التلفزيون ولا يرون فينا أي شيء غريب! وختمت صياحها بالحكمة الخالدة: ما غريب إلا الشيطان! فأبطلتْ بذلك، ذلك التفسير غير المنطقي الذي كاد أن يحظى بالقبول.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

في موعد المباراة، حيث يتنافس الفريق الكروي الخائب والفريق الأخيب منه للفوز بالكأس، نسيَ الجيران أمر الزائر المريب وكل الأمور التي تجري في الكون، وتكوَّموا أمام شاشات التلفزيون جميعًا، عدا الولد المهووس «معتز السيوي» المعروف بأنه يكره كرة القدم، ويقول ما لا يقوله إلا مجنون: الكرة لعبة سياسية!.. ولد مجنون رسمي.

وكما هو متوقعٌ سكن الليل ساعتي المباراة، وفي قلب السكون تختبئ الأحلامُ والأملُ في الفوز، وتنطلق كل برهة صيحات المشجعين. كان «معتز» المجنون يجلس وحده في الفراغ الذي بأول الزقاق يستمع إلى أغنية قديمة، وعلى ملامحه علامات الانسجام. المجانين في نعيم. وفي الدقائق الأخيرة للمباراة، وقرب انتهاء الوقت الإضافي، حدث ما لم يكن متوقعًا وفاز الفريق الأخيب على الفريق الخائب بضربات الجزاء الترجيحية، فجرى الهرجُ في أنحاء الحيِّ ما بين بهجة مشجعين وحسرة المشجعين الآخرين، وتخاصم كثيرون، وكثير من الأصدقاء خسروا الصداقة التي كانت بينهم. ونام الجميع وهم منهكون.

* * *

في اليوم التالي تتالتِ الأحداثُ وتلاحقتْ على نحوٍ سريع، لم يترك الفرصة متاحة أمام لذة التأويلات والاستمتاع بالشائعات. فالجيران الذين استيقظوا فجرًا، رأوا في الخرابة مجموعةً من العمال يضعون شيئًا مريبًا بين أكوام القمامة وفي تجاويف الكراكيب. وبدا

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

لهم أن المؤامرة الكبرى قد بدأ تنفيذها، ولابد أن تنكشف عما قريب أسرارها. سألتهم «أم رامي» من شرفتها المطلة من الطابق الأول للمنزل المجاور للخرابة، عما يفعلون في هذا الوقت (العفاريتي) فأجابها أحدهم بما لم تتوقع، قائلًا إنهم يضعون سُـمًّا للفئران.. فوجمتْ.

أوان الضحى جاء المقاول مجددًا، بالطريقة التي جاء بها في اليوم السابق، فاقترب منه «معتز» وسأله عن سر السم. فأجابه بأن هذا المكان معقلٌ لتناسل الفئران منذ زمن، وإذا بدأ في إزالة الركام منه استعدادًا لوضع الأساسات، فسوف تنتشر الفئران في كل مكان.. كانت «أم التيتي» بالقرب منهما تلتقط ما يقولان، ولما سمعت كلام «محفوظ حافظ» أو حافظ محفوظ، أخبرته بأن بيوت الحارتين ترتع فيها الفئران، وكذلك معظم مباني الزقاق. هز المقاول رأسه ببطء، وببطءٍ قال إنه سيرسل عمال (شركة المكافحة) مجددًا، بعد صلاة الظهر. ومن أراد تطهير بيته من هذه القوارض، فعليه أن يتعاون معهم ويُفسح لهم المجال:

ـ بس ده هيبقى على حساب مين يا اخويا؟

ـ الحساب يوم الحساب يا ست الحاجة. أنا هادفع لهم.

ـ يا سلام! وعليك من ده بإيه؟

ـ أنا باحب أشتغل صح، وعلى نضافة.

ـ طيب، وماله، ربنا يبارك لك يا بيه ويزيدكِ من نعيمه بحق جاه النبي.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

في تمام الواحدة ظهرًا، جاء عمال مكافحة القوارض ومعهم ما يحتاجونه من معدات، فتتالت بل انهالت عليهم الدعوات من الجيران لتطهير بيوتهم. كانوا سبعة، ولم يرفضوا طلبًا وطلبوا الصعود إلى أسطح البيوت والدخول إلى الحنايا والمناور. ولما علا أذان المغرب، كانوا قد انتهوا من عملهم.. وخلال ذلك، كان «الثلاثة الكبار» يراقبون ما يجري حولهم بقلقٍ بالغ.

الصغارُ من أهل الحارة، كانوا سابقًا يظنون أن الفئران من الموجودات في البيوت بالضرورة. وكان الأكبر سنًّا منهم، يتوهمون أن القضاء على هذه القوارض هو المستحيل الرابع، وربما الأول. الاعتيادُ يولِّد البلاهة. فلما ندر وجود الفئران في اليوم التالي، وانقطع تمامًا بعد مرور يومين، اندهش الجميع وأفاقوا من أوهامهم القديمة.. لكن الدهشة والإفاقة، كلتيهما، تؤديان إلى التفكير وهو أمرٌ في الزقاق والحارتين خطير. فقد تفاوتت الرؤى وتنوعت كالمعتاد المواقف، وكان كل قوم بما لديهم يقتنعون. ربّاتُ البيوت فرحن بالخلاص من إزعاج الفئران، خصوصًا صغار الحجم الذين كانوا يمرحون في الأنحاء، ويثيرون الهرج عند مطاردتهم. ومائلاتُ العيون من النسوة انشغلن بالمخلص عن الخلاص من الخسائر التي كانت تسببها الفئران، خصوصًا أنهن لاحظن أن المقاول ليس في إصبعه (دبلة) تدل على الزواج، فهو إما مطلق وإما أرمل أو أعزب. يعني في جميع الأحوال مرشح لتحقيق الأمنيات. والرجالُ امتعضوا من كثرة كلام النساء عن المقاول، ونفوا أنهم غيرانون منه لأنه فعل ما لم يفعلوه وحظيَ بالتقدير الأنثوي. وشبابُ الدليفري

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

المتبرِّمون دومًا، خالفوا معهودهم في الحط من كل حدث يجري، وأعربوا بعبارات قصيرة عن رضاهم بما فعل المقاول تطوعًا.. وخلال ذلك، كان (الثلاثة الكبار) يراقبون ما يجري حولهم، بقلقٍ بالغ.

ظهر يوم الخميس فوجئ الجيرانُ برجالٍ أربعة، أشداء، يأتون بصندوقٍ معدنيٍّ كبير الحجم ويضعونه عند حافة الخرابة، بعناية. وأخبروا مَنِ اجتمع حولهم بأن «محفوظ بيه حافظ» أرسل هذا الصندوق ليضع فيه الناس القمامة، وكلف زبالًا بتفريغه في كل يوم مرتين! وصباح يوم السبت، فوجئ الجيرانُ بعمالٍ لا حصر لهم جاءوا مبكرًا، وراحوا يزيحون الركام عن الخرابة حتى خلت واستوت أرضها، وما عادت تصلح لاسمها السابق.

يوم الاثنين، أوان الظهيرة، انتابت الولد المهووس «معتز» نوبة جنون فصاح بصوت عالٍ عند التقاء الزقاق بالحارتين، قائلًا ما ملخصه إن المنطقة نظفت دون أن يتحمل السكان أيَّ نفقات، فلأي سبب يأخذ «البرطوشي» كل شهر من كل الناس أموالًا، بزعم العناية بالمكان؟! فجاء المتهورون من شباب الدليفري المعروفون باندفاعهم، وانحازوا لما يقول وزادوا عليه وهتفوا بعباراتٍ عاميةٍ كثيرةٍ من مثل: العيب مُش عليه، العيب على الخوَّافين اللي تحت رجليه.. كفاية غباوة، واعترف أنها إتاوة.. يا عم بتسأل القِردة، وانت عارف إنها فِرْدة.. شُغل فَرْد الدراع عمل قيمة للصياع.. استهبال الغجر جايب نتيجة مع البقر.. الفتونة بتأكِّل صاحبها الشهد.

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

وهكذا اصطخب الزقاقُ والحارتان.. وكان الثلاثة الكبار يراقبون ما يُقال ويتابعون الموقف عن كثب، بقلق بالغ.

* * *

يوم الأربعاء جاء «محفوظ حافظ» عصرًا، يحوطه جماعة من العمال والمهندسين، ورسموا على الأرض الفضاء الفسيحة التي كان اسمها سابقًا (الخرابة) خطوطًا متقاطعة، بالجير، وعدلوا فيها مرات حتى ظهر الرضا على وجه المقاول فأعلن بصوتٍ مسموع أنه سيبدأ الحفر لوضع الأساس، يوم السبت المقبل.. وفي طريق خروجه من الزقاق، استوقفه «البرطوشي» بقوله بنبرةٍ سخرية:

ـ هوَّ إيه الحكاية يا عم الشباب، إنت مُش واخد بالك إن الحتة ليها صحاب، ولا يعني سكتنا له دخل بحماره!

ـ معلش، مُش واخد بالي لا مؤاخذة. تطلع مين حضرتك؟

ـ البرطوشي.. عارف يعني إيه البرطوشي..

ـ لأ في الحقيقة، مُش عارف، ولا عايز أعرف.

بدأ حرسُ «البرطوشي» المحيطون به في الزمجرة متوعدين، فانصرف المهندسون من جوار المقاول «محفوظ حافظ» واقترب منه الضخام من العمال.. توقع الجميعُ الصدام الدامي، لاسيما أن اثنين من أعوان «البرطوشي» جلبا من خلف باب بيته بعض عصي الشوم وطوال السكاكين، وكادا يتقدمان نحو المقاول ومن معه. لكنهما ارتدعا وتراجعا عندما أزاح «محفوظ حافظ» طرف قميصه

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

كاشفًا عن مسدسٍ كبيرٍ معلق في حزامه، ووضع يده عليه من دون أن يخرجه من موضعه.

«يا جماعة صلوا ع النبي».. قال ذلك قائلٌ فانسحب حرس «البرطوشي» ورجاله خطوات، ولحق بهم كبيرهم. ولما وجد المقاول أن معترضيه جنحوا إلى السلم، جنح إليه وانصرف بخطوه المتباطئ.. وعلى أثر هذه المواجهة التي لم تتوهَّج جرت همهمات كثيرة بين الجيران، على اختلاف أعمارهم. وبطبيعة الحال كانت همهمات شباب الدليفري وتعليقاتهم هي الأعلى والأشد جرأة: البرطوشي اتبرطش يا جدعان. خدت بالك بلع ريقه إزاي لما شاف المسدس. المقاول ده شكله جبار. البرطوشي نقبه طلع على شونة. كان نفسي من زمان أشوف في البرطوشي يوم زي ده. الحكاية شكلها كده هتولَّع، وتحلوّ..

بعد صلاة العشاء بساعتين اجتمع الثلاثُة الكبار: البرطوشي، والحلتيتي، وشيخ الحارة. وامتد بينهم التباحُث وتبادُل الرؤى، حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل. ولأن أحدًا غيرهم لم يحضر اجتماع القمة هذا، مع أن الجميع علموا بانعقاده، فقد تفاوتت توقعات الجيران وكثرت بينهم التكهنات. واختلفوا كالمعتاد. جماعة قالوا: لن يحدث شيء! وقال جماعة إن الصدام حتمي، لأنه يتعلق بأكل العيش. وصرَّح بعض السكان بأنهم مؤيدون للإصلاحات المحفوظية الحافظية، وبعضهم الآخر جدَّد الثقة في الثلاثة الكبار، ولكن الأكثرية من سكان الزقاق أعلنوا أنهم في حالة

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

اندلاع المواجهة، سوف يبقون على الحياد وتأييد الغالب عملًا بالحكمة الخالدة: اللي يتجوِّز أمي، أقوله: يا عمي. وقالت «أم التيتي» لمن حولها من النسوة، بأسلوبها الحاسم المعهود: كفاية كلام ووجع دماغ، والخبر انهارده بفلوس بكرة يبقى ببلاش.. فأبطلت بذلك قول كل اللواتي حولها.

قبل الفجر بقليل أرسل «البرطوشي» أعوانه الثلاثة المعروفين عند بعض الجيران باسم الغوريلَّا، وعند شباب الدليفري بأسماء: دوبرمان، بيتبول، روت فايلر.. فقاموا بسكب جالون كيروسين في صندوق القمامة الكبير، وأوقدوا فيه نارًا كالسعير أكلت كل ما فيه وألهبت جوانبه، فانهالوا عليه بالمطارق حتى تكسرت جوانبه وصار من بعد كونه صندوق قمامةٍ، قمامةً.

ويوم الجمعة جعل «الحلتيتي» الخطبة الأسبوعية في موضوع: فراسة المؤمن. وأكد خلالها أن أهل الإيمان لا ينخدعون لأنهم ينظرون بنور الله، ولا يصدقون كل أفَّاك أثيم يضحك عليهم ببعض الخدمات المجانية.. وختم الخطبة بزعيقٍ ملتاعٍ، مردِّدًا ثلاث مرات بصوتٍ مدوٍّ: وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

* * *

معظم الجيران، وربما جميعهم، استهانوا بحمق إحراق صندوق القمامة، وخطبة الحلتيتي ذات السخائم. وأجمعوا على أن ذلك كله بحسب وصفهم (لعب عيال) ولن يوقف المقاول المحترم عن استكمال مساره. وبالغ بعضهم في التفاؤل واقترح أن يقترح على

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

«محفوظ حافظ» أن يتولى طلاء واجهات البيوت التي في الحارة، وربما الزقاق أيضًا، لتكون متناسبة مع (العمارة) التي سيقوم ببنائها. فوافق على ذلك كثيرون، وتطوَّع «نظمي الودنان» بطرح الاقتراح على المخلِّص، لكن الجميع رفض ذلك، وندبوا لذلك «فتحي الفران» لأنه بشوش وفي وجهه القبول.. وقال كثيرٌ من الجيران إنهم لن يدفعوا بعد ذلك أي إتاوات للبرطوشي، وليذهب بأعوانه إلى الجحيم. وأقسموا آن يقفوا في مواجهته وقفة رجلٍ واحد، على اعتبار أن الكثرة تغلب الشجاعة.

مرت أعوام، ولم يقف أحد في وجه البرطوشي وظل الجميع يدفعون له (رسوم الصيانة) المسماة سابقًا: الإتاوة.. ولم يعرض «فتحي الفران» أيَّ اقتراحات، لأن المقاول لم يعد من بعدها إلى الحارة، إذ قدَّم شيخُ الحارة بلاغًا إلى الجهات المختصة ذكر فيه أن قطعة الأرض هذه مدفون تحتها آثار، فصدر قرار بإيقاف العمل فيها لحين عمل الحفائر المطلوبة، بمعرفة الخبراء.. ولم يأتِ هؤلاء الخبراء، ولم تتم الحفائر، ولم يظهر محفوظ حافظ، وعادت قطعة الأرض مثلما كانت دومًا (مزبلة) واستعادت اسمها القديم الخرابة.

◊

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

www.ibtesamah.com/vb me3refaty

** معرفتي **
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر أكتوبر ٢٠١٧

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر أكتوبر 2017 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

يوسف زيدان: مفكر وروائي مصري مرموق، حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة وتاريخ العلوم، وصدر له حتى الآن أكثر من ستين كتابًا. نالت أعماله جوائز دولية عديدة: جائزة «عبد الحميد شومان» للعلماء العرب الشبان (الأردن)، جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (الكويت)، جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال الفقه الطبي وأصول فن تحقيق المخطوطات.. ونالت روايته الأشهر «عزازيل» عدة جوائز عالمية: جائزة البوكر العربية (٢٠٠٩)، وجائزة أنوبي (٢٠١٢)، وجائزة بانيبال (٢٠١٣). أصدرت له دار الشروق عددًا من المؤلفات والأعمال الإبداعية، منها رواياته: ظل الأفعى، عزازيل، النبطي، محال، جونتنامو، نور.. وتتصدر رواياته قائمة الكتب الأعلى مبيعًا منذ صدورها وحتى الآن.

www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

دار الشروق
www.shorouk.com

9 789770 934241

Exclusive
For
www.ibtesama.com